جامعة الأزهر
حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بسوهاج

قبسات من بلاغة الخطاب النبوي

موازنة بين

خطبة الصفا وأول خطبة بالمدينة

الدكتور
مرعي سليم مرعي
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بالقاهرة

العدد الخامس والعشرون
للعام ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م
الجزء الأول

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٢٣١/ ٢٠١٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا} [الكهف: ١ – ٣]

والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم ، فكان أفصح العرب لسانا ، وأوضحهم خطابا وبيانا ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين ..

أما بعد : -

فإن لبيان رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبه سمتا خاصا في بناء تراكيبه ، ونسج صوره ، وإقامه بديعه ... على الوجه الذي يحقق غاياته ، ويتناغم مع سياقاته ، ليكون سائغا للعالمين شرابه ، عذبا للثقلين منهله ، تستوعبه العقول على اختلاف قدرات فهمها ، وتتشربه القلوب مع تفاوت إمكاناتها.

هذا السمت الخاص في بناء خطبه صلى الله عليه وسلم فاق البيان البشري قاطبة ، إذ قد بلغ الذروة في الفصاحة والبلاغة البشرية ، ولعل ذلك راجع إلى كونه صلى الله عليه وسلم بجانب كونه أفصح العرب جميعا، أنه أيضا يتلقى من السماء وحيا يوحى إليه ، يدقق فكره ، ويصقل عقله ، ويشحذ همة بيانه صلى الله عليه وسلم حتى تتلألأ أنواره ، وتفيض على الأكوان أسراره..

فهذا المزيج المبارك المكون من فطرته السليمة الفصيحة النابهة .. ، مع إمداد الله تعالى له بجوامع الكلم .. قد كونا هذه المقدرة البيانية الفائقة في كلامه صلى الله عليه وسلم الذي وصفه الجاحظ في قوله : " هو الذي قلَّ عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجلَّ عن الصنعة ، ونُزِّه عن التكلُّف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى (قل يا محمد) : {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: ٨٦].

" فكيف وقد عاب التشدق ؟ ، وجانب أهلَ التقْعير ؟ واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد ، ويُسِّر بالتوفيق ..... وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشَّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حُسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ، ولا زلَّت له قدم ، ولا بارت له حُجَّة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبُذُّ الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتجُّ إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلَج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخِلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهز ، ولا يلمز ، ولا يبطئ ، ولا يعجل ولا يُسهِب ، ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه ..... من كلامه صلى الله عليه وعلى آله صحبه وسلم كثيرا "(١)

نلحظ أن الجاحظ رحمه الله تعالى قد جمع المحاسن كلها لبيان رسول الله صلى الله عليه وسلم من جميع جهات الحسن ، من حيث جودة السبك ، وجمال اللفظ ، ومن حيث المعنى حيث دقة الفكرة ، وإصابة الغاية ، وقوة الحجة ، كما نزه كلامه صلى الله عليه وسلم عن كل عيب يعيبه في ألفاظه أو معانيه

ويستأنس الجاحظ فيما ذهب إليه بكلام من سبقه فيورد لنا ما قاله محمد بن سلام الجمحي نقلا عن يونس بن حبيب في صفة كلام النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : " قال محمد بن سلام قال يونس بن حبيب : ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ولعل بعض من لم

(١) البيان والتبيين – أبوعثمان عمر بن بحر الجاحظ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – د ت – جـ ٢ ص ٨ ، ٩

يتسع في العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام يظن أنا تكلفنا له من الامتداح والتشريف ، ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده ، ولا يبلغه قدره ...، كلا والذي حرَّم التزيُّدَ على العلماء ، وقبَّ التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء لا يظن هذا إلا من ضل سعيه " [١] .

فالجاحظ هنا يركز على جانبين اثنين مهمين :

الأول : كون رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح العرب طبعا وسليقة ونشأة ، فألفاظه بما حملت من دقائق المعاني غير متكلفة ولا مصنوعة ، وإنما محققة لغاياتها المسوقة من أجلها ، ومعانيه التي اكتست من ملائم ألفاظها رائقة رائعة مسددة لأهدافها التي ترمي إليها ، فلا اللفظ وحده – عاريا عن معناه – فلا يبقى غير جرسه وصوته ، ولا المعنى وحده – معلقا في الهواء – لا يُعقَل منه شيء بدون أن يكتسي من الألفاظ ملائمه ، وإنما اللفظ بمعناه ، والمعاني لا تتضح إلا بألفاظها الحاملة لها والمنظومة على قدرها .

والجانب الثاني : الذي أكد لجاحظ على بيانه في كلام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم هذه النفحات الربانية والعطاءات الإلهية الناتجة عن اتصاله صلى الله عليه وسلم بالوحي الكريم بما له من أسرار وأنوار وأمداد ورحمات ربانية عظيمة.

وفي مثل ذلك يقول الرافعي رحمه الله تعالى : " ولا نعلم إلا أن هذه الفصاحة قد كانت له – صلى الله عليه وسلم – إلا توفيقا من الله وتوقيفا إذ ابتعثه للعرب وهم قوم يُقادون من ألسنتهم ، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة ، ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم في لغات وآداب العرب ، فمنهم الفصيح والأفصح ، ومنهم الجافي والمضطرب ، ومنهم ذو اللوثة والخالص في منطقه ، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها بينهم ، وتخصص

---

(١) المصدر السابق

بعض القبائل بأوضاع وطباع مقصورة عليهم ، لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب إلا من خالطهم أودنا منهم دنو المأخذ ، فكان – صلى الله عليه وسلم يعلم كل هذا على حقه كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها ، وتبادره بحقائقها ، فيخاطب كل قوم بلحنهم ، وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابا ، واسَدَّهم لفظا ، وأبينهم عبارة ، ولم يُعرف ذلك لغيره من العرب ، ولوعرف لقد كانوا نقلوه ، وتحدثوا به ، واستفاض فيهم ..... فليس إلا أن يكون ما خُصَّ به النبي – صلى الله عليه وسلم – من ذلك قد كان توفيقا وإلهاما من الله ، أو ما هذه سبيله مما لا ننفذ في أسبابه ، ولا نقضي فيه بالظن ، فقد علَّمه الله من أشياء كثيرة ما لم يكن يعلم ، حتى لا يعبأ بقوم إن وردوا عليه ، ولا يحصر إن سألوه ، ولا يكون في كل قبيل إلا منهم ، لتكون الحجة به أظهر ، والبرهان على رسالته أوضح ، وليُعلَم أن ذلك له خاصة من دون العرب "[١]

وبهذا الوعي البياني النبوي البليغ خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ، فكان لأهل مكة في بداية صدعه بالدعوة – وهو على جبل الصفا – طريقة في الخطاب تختلف كثيرا عن أسلوبه صلى الله عليه وسلم عندما خاطب المن وقد اختلف الزمان والمكان، والمخاطبون مؤمنون في أول خطبة له في المدينة المنورة ، إذ إن كل خطاب كانت له خصوصياته التي تناسب ظروفه من حيث الزمان ، والمكان ، والمقام ، والأعراف ، والمواضعات ، وطرق الحجاج ، ووسائل الإقناع ، ومن يتلقى الخطاب ، وما يعتقده كل فريق من كفر أو إيمان ، فلكل موطن بيانه ، ولكل مقام مقاله ، ولكل سياق أسلوبه الذي يلائمه .

وسوف يستعرض بحثي هذا مقامين مختلفين :

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي – الطبعة الثامنة – دار الكتاب العربي – بيروت – ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م ص ١٩٥ وما بعدها

المقام الأول : بداية تنفيذ أمر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصدع بالدعوة في مكة المكرمة ، إذ قد صعد النبي صلى الله عليه وسلم على جبل الصفا ونادي ، ودعا إلى توحيد الله تعالى ، في خطبة قصيرة المباني ، وافرة المعاني

والمقام الثاني مقام موعظة المؤمنين في أول خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة إذ قد اختلف الزمان ، والمكان ، والمخاطبون ، فهي موعظة للمؤمنين في بداية عهد جديد لبناء دولة الاسلام .

وذلك في محاولة لدراسة الخصوصيات البلاغية لكل مقام ، موازنا بين المقامين ، لإبراز بعض الفروق في الخصوصيات البلاغية التي بنى عليها النبي صلى الله عليه وسلم بيانه في كل سياق بما يلائمه .

وقد اعتمدت على ما صح من روايات الخطبتين ، وجمعت بين الروايات الصحيحة إذ يكمل بعضها البعض الآخر .

سائلا الله تبارك وتعالى العون والتوفيق ، وأن يكون عملي هذا خالصا لوجهه الكريم ، إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

الباحث

أولا : خطبة الصفا

وردت هذه الخطبة الشريفة بروايات صحيحة متعددة ، وقد يرجع ذلك إلى تعدد الرُّواة ، أوالى تكرار الواقعة ، وسوف أنقلها برواياتها الصحيحة ، لمحاولة الوقوف على أكبر قدر من خصائصها البلاغية .

لقد ظلت الدعوة إلى توحيد الله تعالى سرا ثلاث سنوات إلى أن أمر الله تعالى نبيه – صلى الله عليه وسلم – بإظهار دينه ، قال تعالى : {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤].

ثم أتبع هذا الأمر العام بأمر خاص لقومه وعشيرته – صلى الله عليه وسلم – فقال سبحانه : {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤].

عندئذٍ انطلقت صيحة الحق ، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " لما نزلت: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي – صلى الله عليه وسلم – الصفا ، فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عَدِيّ – لبطون قريش – حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا ، لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال (أي النبي – صلى الله عليه وسلم –) : " أرأيتَكم لو أخبرتُكم أن خيلا بالوادي ، تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدِّقِيَّ ؟ قالوا: " نعم ، ما جرَّبنا عليك إلا صدقا " قال : " فإني نذير لكم بين يدّي عذاب شديد " قال أبو لهب : " تبا لك سائر هذا اليوم ، أٓلِهَذا جمعْتَنا ؟ فنزلت {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد: ١، ٢]. (١)

وفي رواية أخرى : " لمَّا نزلت هذه الآية :" وأنذر عشيرتك الأقربين ، ورهطك منهم المخلصين " (هكذا وردت ، قال القرطبي رحمه الله تعالى :

(١) أخرجه الإمام البخاري – انظر صحيح البخاري بشرح ابن حجر العسقلاني (فتح الباري) – الرياض – الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية – السعودية د ت –ج ٨ ص ٥٠

" وظاهر هذا أنه كان قرآنا يُتلى ، وأنه نُسِخ ، إذ لم يثبت نقله في المصحف ، ولا تواتر " (١) .

" فاجتمعوا إليه ، فقال : " يا بني فلانَ ، يا بني فلان ، يا بني عبد مناف ، يا بني عبد المطلب ، فاجتمعوا إليه ، فقال : " أرأيتَكم لو أخبرتُكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكُنتم مصدِّقِيَّ قالوا : " ما جرَّبْنا عليك كذبا ، قال : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " قال : فقال أبو لهب : " تبًّا لك ، أما جمعتنا إلا لهذا ؟" ثم قام ، فنزلت هذه السورة : " تبَّت يدا أبي لَهَبٍ وتَبَّ " (المسد ١) (٢) .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " لما نزلت {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] جمع رسول الله – صلي الله عليه وسلم – قريشا فخصَّ وعمَّ ، فقال : " يا معشر قريش : انقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا ، يا معشر بني عبد مناف : أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا ، يا معشر بني قُصي : أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا ، يا معشر بني عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا ، يا فاطمة بنت محمد : أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك من الله ضرا ولا نفعا ، إن لك رحما سأبلُّها ببلالها " (٣) .

---

(١) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن –ط دار الكتاب العربي – بيروت – ١٩٥٢م –ج ١٣ ص ١٤٣.

(٢) أخرجه الإمام مسلم – صحيح مسلم ط إدارة البحوث العلمية – السعودية ١٤٠٠ هـ

(٣) (أخرجه الإمام الترمذي – صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي المالكي ط : دار الكتاب العربي – بيروت ج ٢ ص ٦٠ ، ٦١ ، وقال ابن العربي : (سأبلُّها ببلالها يعني الدعاء لهم ، والشفاعة عند الله ، كما فعل بأبي طالب وهوكافر ، فكيف بالمؤمنين من ذريته) ، وقال أيضا : (جاء في صحيح مسلم (وانذر عشيرتك الأقربين ، ورهطك منهم المخلصين) وهذا من المنسوخ فلا يُفتقَر إلى نظر فيه).

وفي رواية الترمذي قال : " حدثنا هناد وأحمد بن منيع قالا : حدثنا أبومعاوية ، قال حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : " صعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذات يوم على الصفا فنادى : " يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش فقال : " إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، أرأيتكم لو أني أخبرتكم أن العدو ممسيكم أو مصبحكم أكنتم تصدقونني ؟ " فقال أبو لهب : (ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك) فأنزل الله :" تبت يدا أبي لهب وتب " (المسد ١) [(١)] .

والملاحظ أن المضمون العام للخطبة واحد مع تعدد رواياتها الصحيحة ، ومن المرجح أن تكون رواية " وا صباحاه ..." أتم الروايات ، نظرا لعادات العرب في كلامها، حينما يذكرون أمرا ذا خطر يبدأون بداية قوية ملتهبة تحمل الاستغاثة (وا ...كذا " إذ حينما هتف الرسول صلى الله عليه وسلم : " وا صباحاه " قالوا : " من هذا ؟ قالوا : " محمد " فاجتمعوا إليه ، وهنا تأتي الرواية التي حملت نداءه صلى الله عليه وسلم (يا بني فلان ..يا بني فلان ...يا بني فلان ... يا بني عبد مناف : ، يا بني عبد المطلب : ، فاجتمعوا إليه ، فقال : " أرأيتكم لو أني أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ ؟ ، قالوا : ما جربنا عليك كذبا ، قال : " فإني نذير لكم بين يدي شديد " ثم تأتي رواية أبي هريرة رضي الله عنه المشار إليها من قبل لتتمم مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم (لما نزلت " وأنذر عشيرتك الأقربين " (سورة الشعراء – الآية ٢١٤) جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ، فخصَّ وعمَّ ، فقال : " يا معشر قريش : أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا ..." فأتبع النداء الأمر" أنقذوا أنفسكم من النار " ، وسبب الأمر " فإني لا أملك لكم من الله نفعا ولا ضرا " ... وهكذا .

وسوف تدور الدراسة حول الخطبة على هذا النسق الجامع لما صح من رواياتها والله المستعان .

---

(١) هذا حديث حسن صحيح (الحديث رقم ٣٣٦٣ من صحيح الترمذي – تحقيق شاكر ج ٥ ص ٤٥١).

مناسبة الخطبة

لا شك في أن هذه الخطبة الشريفة بداية نقلة كاملة شاملة من مرحلة الإسرار بالدعوة في خفاء إلى مرحلة الإعلان القوي المدوي الظاهر الذي لا يخشى لأحد بأسا ، ولا يرهب لمخلوق جانبا ، انتقال من الاتصال الشخصي المحدود إلى الاتصال الجماهيري غير المحدود ، فهي نقلة عظيمة للحركة بالدعوة الإسلامية في العهد المكي ، حيث كانت البداية الحقيقية للاتصال الجمعي الذي تميزت به الحضارة الإسلامية في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، وفي العهود الإسلامية الزاهرة ، لقد كان الاتصال الدعوي قبل هذه الخطبة يدور في إطار الجماعات الأولية ، مثل الأسرة والأصدقاء ، ومن يثق بهم الرسول صلى الله عليه وسلم مثل زوجته خديجة بنت خويلد ، وابن عمه علي بن أبي طالب وصديقه أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهم أجمعين . .

لقد بدأت الدعوة سرا ، واستمرت ثلاث سنوات ، تدور في إطار الاتصال الشخصي ، بما له من سمات إقناعية ، حتى بلغ عدد المسلمين قرابة ستين ، ما بين رجل وامرأة ، كانوا القاعدة الأساسية لجماعة المسلمين ، تربَّوا في مدرسة النبوة ، في دار الأرقم ، وفي شعاب مكة ، وحين نراجع هذا الرصيد من جماعة المسلمين نجدهم أهل السابقة ، الذين حملوا الإسلام على أكتافهم ، واضطلعوا بعبء حمل الرسالة ، وقيادة المجتمع الإسلامي فيما بعد ، فمنهم الخلفاء الأربعة ، والعشرة المبشرون بالجنة ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كانت التربية التي تلقوها تؤهلهم ليكونوا صناع التاريخ بحق [١] ..

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : سبل الهدى والرشاد في هدي خير العباد – محمد بن يوسف الصالحي الشامي – تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض جـ ٢ – ص ١٢٢ وما بعدها – بيروت – دار الكتب العلمية – ١٤١٤ هـ

القِيَم البلاغية في الخطبة

اشتملت الخطبة الشريفة على قيم بلاغية عالية .. من أبرزها :

براعة الاستهلال

تبدأ الخطبة بنداء خاص " يا صباحاه "، ومعروف أن مهمة النداء طلب الإقبال أوتنبيه الغافل [١] وهذان الغرضان يستعملان إذا كان المتكلم لديه أمرا عظيما يحرص على أن ينبه السامعين إليه .

أما في قوله : " يا صباحاه " فهي استغاثة مؤذنة بأن الأمر جلل ، وبالغ الخطورة والسرعة التي تُستنَهَض لها الهمم ، وتستَجلَب لها وسائل الغوث والنجدة ، وهي كلمة تُستصرخ بها الخيل للحرب ، وهكذا استعملها العرب [٢] .

وبراعة الاستهلال كامنة في هذا النداء الذي يستصرخ القوم بما حواه من اسلوب استغاثة مشوبة بندبة، وهو بهذا يشير ويلخص مقصد الخطبة كلها ، وهو التحذير من أمر جلل.

واصل الندبة : أثر الجرح المؤلم ، ويكون بمعني ندب القوم إذا استدعاهم لأمر عظيم ، كما أن الألف والهاء في النداء يعطيان معاني الاستغاثة والاستصراخ يقول سيبويه : " وقد يلحقون في الوقف هذه الهاءَ الألفَ التي في النداء ، والألف والياء والواو في النُّدبة لأنه موضع تصويت وتبيين ، فأرادوا أن يمُدُوا فألزموها الهاء في الوقف لذلك ، وتركوها في الوصل لأنه يُستَغنى عنها كما يُستَغنى عنها في المتحرك في الوصل لأنه يجيء ما يقوم مقامَها ، وذلك قولك : يا غلاماه ، ووا زيداه " [٣] .

---

(١) يراجع شروح التلخيص جـ ٢ ص ٢٤٠ ط دار السرور – بيروت – د ت .

(٢) معجم مقاييس اللغة– ابن فارس ت عبد السلام هارون ط دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م ج ج ١ ص ١١٧) ، وقد عدَّ سيبويه النداء توكيدا بالنظر لما يحدثه من التنبيه للمخاطب يقول سيبويه : ط والنداء في هذا الموضع توكيد " (الكتاب – سيبويه – تحقيق عبد السلام محمد هارون – ط ٣ الخانجي بالقاهرة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م ج ١ ص ٢٤٥)

(٣) لسان العرب – جمال الدين بن منظور– مادة: (ندب) ٤– الكتاب – سيبويه ج ٤ ص١٦٦.

وهو يتوجع منه ، ويكون المعنى حينئذ ليس طلب الإقبال العادي ، وانما استصراخ القوم لأمر عظيم ، ويكون بمعنى التوجع من الصباح ، والتفجع عليه لإعلام السامع بمدى هول الصباح وشدة أمره ، واستصراخ القوم لإغاثته فهذا أسلوب واحد من أساليب النداء ، احتمل شدة الطلب المشوب بالاستغاثة والندبة .

ونداء الصباح – وهو زمان – والمراد نداء القوم : من قبيل المجاز العقلي بعلاقة الزمانية ، وفيه دلالة على العموم والشمول ، بأن نادى الصباح بما فيه ومن فيه .. نظرا لأهمية الباعث على هذا النداء . .

وفي ذلك من إيجاز الحذف وجوامع كلمه صلى الله عليه وسلم القدر الكبير، وكأن العدو قد صبحهم بقتال ، فهو صباح متفجع عليه بما يحمل من أهوال وشدائد .

وقد يكون إنشاء بمعنى الخبر ، والعرب تستعمل هذه الصيغة للدلالة على أن هولا عظيما قد حل بهم ، فهم يستغيثون منه ويستصرخون القوم إليه .

وقد جاء هذا البناء في مكانه بدقة فائقة ، إذ يظهر حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يجمع أكبر قدر من القوم في أسرع وقت ممكن ، ليبلغهم رسالة ربه ، وهذه استراتيجية إعلامية قوية ، نفذها الحبيب صلى الله عليه وسلم بفطرته القويمة الممدودة بالوحي الكريم .

وقد تلا هذا النداء المستصرخ المستغيث نداءات أخرى متعددة ، أثبتتها الروايات الصحيحة لهذه الخطبة الشريفة ، فبعد النداء والاستغاثة والندبة للصباح بطريق الإجمال قام بالتفصيل بعده بندائه عشائره الأقربين عشيرة عشيرة..

ففي رواية ابن عباس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صعد الصفا جعل يردد النداء فيقول : " .. يا بني فهر .. يا بني عدي .." لبطون قريش..

فإذا كان هذا النداء قد تلا قوله : " يا صباحاه " – بأن تكون الروايات يكمل بعضها بعضا – فيكون النداء التالي للنداء المستصرخ تأكيدا لهذا الاستصراخ ، ومترتبا عليه ، ولا يكون ذلك إلا لأمر عظيم... إذ بعد أن نادى نداء عاما أردف نداءات خاصة ، بأن نادى كل بطن من بطون قريش على حدة " يا بني فلان .. يا بني فلان .. " كما ورد في رواية الإمام مسلم أنه قال : " يا بني عبد مناف ... يا بني عبد المطلب .." وهذا إلحاح عظيم على طلب الإقبال ، بذكر الخاص بعد العام ، وذكر التفصيل بعد الإجمال ، وذلك لمسيس حاجة المقام إلى هذا التخصيص ، وهذا التفصيل

في رواية الترمذي نري نداءات متعددة بغير النداء الذي استهلت به الخطبة الشريفة ، بلا استغاثة ، ولا ندبة ، وانما بأسلوب نداء البعيد ، مع بناء خاص متشابه لعبارة المنادَى .

وأن كل نداء قد شُفِع بأمر، وتعليل لهذا الأمر ، " يا معشر قريش : انقذوا أنقسكم من النار ، إني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا ، يا معشر بني عبد مناف : انقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا ، يا معشر بني قُصَيّ : انقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا ، يا معشر بني عبد المطلب ، انقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا ، يا فاطمة بنت محمد : انقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لك من الله ضرا ولا نفعا ، إن لك رحما سأبلها ببلالها "

فنلحظ تكرار " يا معشر بني كذا " ." يا معشر بني كذا " باستعمال أداة النداء " يا " الموضوعة لنداء البعيد ، وهم ليسوا منه ببعيد بعد مكان ، وانما أراد صلى الله عليه وسلم تأليف قلوبهم ، بإنزالهم منزلة البعيد شرفا وقدرا ، حتى يربت على قلوبهم لتنفتح أمام رسالته صلى الله عليه وسلم .

وفي تكرار النداء لكل معشر منهم على حدة مزية تتناسب مع عاداتهم في الجاهلية من عصبية قبلية ، وتفاخر بينهم بالأحساب والأنساب والألقاب ، وأن يخص كل بطن منهم بنداء خاص بهم يحمل اسم عشيرتهم .. فيه إطراء لفضولهم وذلك سبب لشرح صدورهم لمقالته صلى الله عليه وسلم .

كما يلحَظ أنه صلى الله عليه وسلم لم يرسل النداءات كيفما اتفق ، وانما تحرَّى دقة بالغة في ترتيب المنادَين ، فبدأ بالجد الأعلى العام لعشيرته صلى الله عليه وسلم فنادى (معشر قريش) ، ثم خصَّ بندائه الأقرب فالأقرب من عشائره، فنادى (بني عبد مناف) ، ثم الأقرب منهم إليه (بنو قصي) ، ثم الأكثر قربا إليه (بنو عبد المطلب) جده القريب .. ثم ختم النداء بأقرب الأقربين إليه ، وهي (فاطمة ابنته) صلى الله عليه وسلم .... وهذا نهج عبقري في تصعيد قدر الدعوة ، والإنذار، فبدأ بالأبعد من عشيرته الأقربين ، وختم بأقرب الأقربين ، وسبحان من أرسله بليغا ، وأوحى إليه براعة ودقة ، صلوات الله وسلامه عليه .

ثم أتبع النداء أمرا تحذيريا شديد الوقع " أنقذوا أنفسكم من النار " ، وهي عبارة لا تقال إلا لمن وقع في النار حال التحذير ، أو أوشك أن يقع فيها ، أو كان على شفا حفرة منها .

وهي استعارة تمثيلية رهيبة يشبه حالهم في شركهم وضلالهم مع حرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم ، واخراجهم من ظلمات الكفر والشرك والغي إلى نور الهدى الإيمان والتوحيد والرشد .. بحال من هو على شفا حفرة من النار ، وهو يحاول تحذيره لإفاقته من غفلته ، وذلك تجسيد لحالهم في ضلالهم وتحذيره لهم وذلك يبرز مدى خطورة ما هم عليه من الشرك ومدى حرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم ليكون ذلك أدعى لاستجابتهم واوقع في إيقاظ عقولهم ، ثم أُتبعت جملة الأمر التحذيري بجملة أخرى ، معطوفة عليها بالفاء ، لبيان سبب الأمر ..." فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا " وفي هذا نفي للوساطات التي تعارفوا عليها في الجاهلية ، وانتشرت فيما بينهم ، فلا وساطة

إذن تنفذهم من عذاب الله تعالى إن هم أصروا على كفرهم وعنادهم حتى أقرب الأقربين إليه (فاطمة ابنته) لا يملك لها من الله تعالى ضرا ولا نفعا .

ويتكرر ذلك مع تكرار النداء ، وذلك لبيان مدى الضرر المحدق بالقوم إذا هم لم ينقذوا أنفسهم بالإيمان مما هم عليه من شرك وعناد كحرصهم على إنقاذ أنفسهم من النار.

وأسلوب الأمر في قوله صلى الله عليه وسلم : " أنقذوا أنفسكم من النار " مع تكراره مع كل نداء فيه تأكيد للمعنى وإلحاح لإظهاره وتقريره ، واجتماع الأمر بعد النداء دلالة على خطورة الأمر، لأن النداء نبه للأمر ومهد له وأيقظ النفوس والهمم لتلقيه ، ثم جاء الأمر بعد التنبيه إليه بالنداء ليثبت في النفوس ويتمكن فيها أفضل تمكن .

وكما نرى أن الأمر ههنا ليس على حقيقته ، وهو طلب الفعل على جهة الاستعلاء والقهر ، وإنما خرج عن حقيقته ليدل على النصح والإرشاد والتحذير من شرك القوم الذي سيؤدي بهم إلى النار، وكأنهم وما هم عليه من شرك يتهاوون في النار، أعاذنا الله وإياكم منها .

وفي تكرار الأمر مع كل نداء – وإن اختلف المخاطب – يدل على التقرير وتأكيد شدة الحرص على نجاة القوم من مغبة كفرهم وشركهم .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : " فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا " تأكيد ب " إن " للوساطة أو المحسوبية نافيا عدم ملكه لهم من الله ضرا ولا نفعا ، والملحوظ في هذا الطباق البليغ أنه جمع نفي الشيء وضده ليفصل لهم مجملا قد يكون صعبا عليهم استيعابه فهو لا يملك الضر كما أنه لا يملك النفع أيضا أي أنه نفى ملك أي شيء على الإطلاق بنفي الشيء وضده .ودائما الضد يظهر حسنه الضد .

أما الأمر الموجه إلى ابنته فاطمة رضي الله عنها فقد كان كالأمر الموجه لجميع عشائره الأقربين ليؤكد لعشائره أنه لم يختص ابنته بأمر دونهم ، إلا ما يتعلق بأمر يعرفونه ، وهو أمر دنيوي وهو صلة الرحم لذا فقد زاد على أمرهم بإنقاذ أنفسهم من النار فقال : " إن لك رحما سأبلها ببلالها " ، وهي وإن كانت خصوصية لابنته إلا أنها لا شأن لها بدفع الضُّرِّ ولا جلب النفع ، وهذه العبارة مؤكدة للكلام قبلها ، وكأنه يقول لها إن هذا أقصى ما يملكه لها ، وهي تلك الصلة للرحم ، التي سيقوم بحقها ، ويبلها ببلالها ، أي سيقضي حقها في الدنيا ، وهذا يؤكد كونه صلى الله عليه وسلم لا يملك لها من الله تعالى ضرا ولا نفعا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : " سأبلها ببلالها " فهي استعارة مكنية رائعة ، جعل الرحم فيها أرضا ، والصلة مطرا يبل الأرض ، لتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج .، وفي ذلك بيان أن حاجة الأرحام إلى الصلة كحاجة الأرض إلى السقيا.

التمهيد للقضية الرئيسة في الخطبة :

وبهذا البيان النبوي الكريم لأهله وابنته صلى الله عليه وسلم يمهد الحبيب صلى الله عليه وسلم العقول التي تتلقى رسالته تمهيدا منطقيا ، لا تدفعه عقول القوم بما عرفوه عن صدقه وأمانته التي كانت مضرب الأمثال بينهم .. ، حتى عُرِف بينهم بالصادق الأمين صلى الله عليه وسلم ، وهو بذلك يؤسس ما يقيم به الحجة عليهم بعد ذلك ، ويقطع عليهم سبل الاعتراض ، بأن يرموه بالكذب وقد أقروا واعترفوا له بالصدق .

ونرى ذلك في بناء تركيبي خاص من أساليب الإنشاء ، وهو الاستفهام الذي خرج عن حقيقته – وهي طلب الفهم – إلى الدلالة على التقرير ، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : " أرأيتكم لو أني أخبرتكم أن خيلا تخرج من خلف الجبل تغير عليكم أكنتم تصدقونني ؟ قالوا : ما جربنا عليك إلا صدقا ، بعد نزع اعترافهم بكونه صادقا ، ولا يتأتى منه الكذب ، قال صلى الله عليه وسلم : " فإني

نذير لكم بين يدي عذاب شديد " ، وهذه هي الرسالة الرئيسة التي ألقيت إليهم بعد إقامة الحجة عليهم . وكونها العبارة الرئيسة في هذه الخطبة من جانبين أساسيين : –

الأول : مقدمة افتراضية حجاجية، يبنى عليها استنتاج عقلي ، مترتب عليها ترتيبا منطقيا كاملا ، وأساس بنائها استفهام تقريري في جملة شرط .

والثاني : استنتاج عقلي منطقي مبني على القضية السابقة ، ومترتب عليها ترتيبا عقليا منطقيا دقيقا للغاية ، وهي الجملة الخبرية " فإني نذير لكم بين يدي عذاب أليم " ، وهي مكونة من تأكيده كونه نذيرا لهم مع كون هذا الإنذار من الوقوع في عذاب شديد بين يديه أي أقرب ما يكون إليهم.

وفي قوله : " بين يدي عذاب شديد " تجسيد للعذاب الشديد وأن هذا العذاب كأنه شخص ذو يدين بطريق الاستعارة المكنية التي تجعلهم بين يدي هذا العذاب ، فما أقربه بشركهم إلى هذا العذاب الشديد .

فلما أن استجابوا لندائه – صلى الله عليه وسلم – واجتمعوا مسرعين إليه، ومن لم يستطع الحضور أرسل رسولا لينظر ما الخبر ، أراد أن ينبههم إلى أمر هم يعرفونه ، ويقرون به من قبل ، وهو صدقه – صلى الله عليه وسلم – الذي عُرف به ، واشتهر وتأكد عند جميعهم بما لا يدع مجالا لشك أو ريبة ، فطرح عليهم تساؤله الذي أراد أن ينتزع به اعترافهم بصدقه – صلى الله عليه وسلم – ليقيم الحجة عليهم ، فاستعمل أسلوب استفهام بطريقة بنائية أَلِفوها في استعمالاتهم فقال : " أرأيتكم " أي أخبروني ، وتلك عبارة دائرة على ألسنة فصحائهم ، وقد وردت في كتاب الله تعالى [١] .

وهي بمعنى (أخبروني) كما ذهب إلى ذلك الزمخشري ومن تبعه [٢] .

---

(١) الأنعام الآيتان ٤١ و ٤٧.

(٢) الكشاف للزمخشري جـ ٢ ص ١١٥

وفيها إعادة السامع إلى نفسه يراجعها ، ويروزها ، ويستعرض حججها..، قبل أن يتسرع بفهم خطأ ، قد يؤدي به إلى ما لا تحمد عواقبه .

والاستفهام هنا تقريري يُستَخرج به ما في داخلهم من إقرار واعتراف بصدقه – صلى الله عليه وسلم – الذي لا تشوبه شائبه لديهم ، إذ إنهم يعرفون صدقه وأمانته حق المعرفة ، وذلك ليؤسس من هذا الإقرار قاعدة يبني عليها حجته على ما سيلزمهم به .

ويواصل في الاختبار الحِجاجي لهم فيقول : " لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ ؟ " أي لو أخبرتكم أن جيشا جاء لحربكم ، والإغارة عليكم ....، هل يكون لديكم شك في صدق ما أخبرتكم به ؟ وهذه جملة شرطية تقوم على الفرض والاحتمال القائم على الشرط ب (لو) التي تفيد امتناع الجواب بسبب امتناع الشرط ، وذلك مفاده أنه لم يخبرهم بذلك حفاظا على مصداقيته ، وإنما الأمر قائم على الافتراض ، يعني إلى هذا الحد تكون درجة صدقي عندكم ، مهما بلغت قوة النازلة ، ووقع الخطب قويا أكون لديكم صادقا أقول الحق ، ولا أكذبكم في شيء؟

وانظر إلى إعادة الاستفهام الذي يزيد الأمر توكيدا وتقريرا في قوله – صلى الله عليه وسلم – : " أكنتم مُصَدِّقيّ ؟ " وهذا استفهام تقريري ثان ، يؤكد سابقه ، ولم يكن هو بعينه ، إذ نستطيع أن نقرر بأن الأول ممهد للنفوس ومحفز لها ، وأن الثاني قاطع في تقريرهم بما يريد إقرارهم به ، وذلك أسلوب حجاجي تعجز التداولية المعاصرة أن تقيمه بمعاييرها الواهية .

ويأتي ردهم قاطعا بصدقه – صلى الله عليه وسلم – في قولهم : " ما رأيناك إلا صادقا " وفي رواية : " ما جرَّبنا عليك كذبا "

فالأسلوب الأول أسلوب قصر بالنفي والاستثناء الذي هو أصل باب القصر، أي أنك لست إلا صادقا ، أي لا توجد فيك شبهة كذب .

وفي الرواية الثانية كناية عن صدقه أيضا ، إذ إن عدم تجربتهم الكذب عليه يستلزم كونه صلى الله عليه وسلم صادقا ، وهي كدعوى الشيء ببينة، فهاهم لم يجربوا عليه كذبا قط ، وهذا دليل قاطع على صدق فيما سيلقيه إليهم وهي العبارة الأم التي أقيمت لها الخطبة بأسرها ، وهي القطب الذي عليه المدار، تأتي موجزة ومركزة وقاطعة .

عرض القضية الرئيسة في الخطبة :

" فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد "

وهي كما نرى غاية في الإيجاز والتركيز ، إذ إنها من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم .

وأول ما نلحظه التوكيد ب " إن " واسمية الجملة ، ليواجه بهذا التوكيد ما يتوقعه من إنكارهم لإنذار عادي وإنما هو إنذار قوي الوقع شديد اللهجة لأنه ليس تحذيرا من خطر عادي ، وإنما هو خطر رهيب مهيب جلل لأنه " بين يدي عذاب شديد "، ومع وصف العذاب بالشدة فقد جسد العذاب بأن جعلهم بين يديه بعد أن شبهه بشخص له يدان يلتهم بهما من اقترب منه فكان بين يديه .

وذلك بناء على ما مهد به من قبل ، وكأنما هذه نتيجة ترتبت ترتيبا عقليا منطقيا لما قدمه من تكرار للنداء ، والأمر بإنقاذ أنفسهم من النار حتى فاطنة ابنته رضوان الله عليها .

وها هو الصادق لا يكذبهم التحذير ، قاطعا عليهم كل حجج التفلت من إجابته صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك يقوم له عمه أبو لهب ولا يكذبه لأنه ليس له إلى تكذيبه من سبيل ، وانما يسبه شأنه شأن المنفعل الذي دحضت جميع حججه ولا يري في حفظ ماء وجهه إلا التعدي على قاطع الحجج بالسباب فقال له (تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟) وينزل القرآن الكريم يرد سبابه الباطل بسباب حق في قوله تعالى : {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد:١]

الدلالات والمعاني والمفاهيم البلاغية في خطبة الصفا

أولا : مبدأ البشارة والإنذار : -

وهو مبدأ أصيل من أهم مبادئ الإعلام الإسلامي – وهو من البلاغة بأعلى غاية ، إذ إنه رعاية للمقام، وهذا محز البلاغة ، حيث إن الاتصال من خلال المنظور الإسلامي ينبغي له أن يلتزم هذا المبدأ في مخاطبة الناس ، وتوجيه الأحداث ، فبلاغة الإعلام الإسلامي تبشر الناس ، وتفتح أمامهم آفاق الأمل ، ولا تثبط هممهم ، كما أنها أيضا تنذرهم من سوء المصير لمن لم يعتبر بالآيات والسنن ، واتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني ..

ثانيا : انتقال بلاغة الخطبة من الاتصال الشخصي إلى الاتصال الجمعي :

لقد كانت هذه الخطبة نقلة عظيمة للحركة بالدعوة الإسلامية الزاهرة ، لقد كان الاتصال الدعوي قبل هذه الخطبة يدور في إطار الجماعات الأولية مثل الأسرة والأصدقاء ، ومن يثق بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل زوجه خديجة بنت خويلد ، وابن عمه علي بن أبي طالب ، وصديقه أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين [١] .

لقد بدأت الدعوة سرا ، واستمرت ثلاث سنوات ، تدور في إطار الاتصال الشخصي ، بما له من سمات إقناعية ، حتى بلغ عدد المسلمين قرابة ستين ، ما بين رجل وامرأة ، كانوا القاعدة الأساسية لجماعة المسلمين ، تربوا في مدرسة النبوة ، في دار الأرقم ، وفي شعاب مكة ، فكان منهم الخلفاء الأربعة ، والعشرة المبشرون بالجنة [٢] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد – محمد بن يوسف الصالحي الشامي – تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٤هـ – جـ ٢ – ص ٣٢٢ وما بعدها .

(٢) فقه السيرة النبوية – منير محمد غضبان – ط جامعة أم القرى – مكة المكرمة – ١٤١٥هـ – ص ١٤٤ وما بعدها

فلما نزل قوله تعالى : {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤] أرشد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى شكل اتصالي جديد في حمل الدعوة الإسلامية فقد اختلف المقام .

ثالثا : **فن التوقيت** راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ظروف الزمان المواتية ، ودرس اللحظة المناسبة ، لتحقيق أكبر قدر ممكن من الإقناع برسالات ربه ، لقد جاءه الأمر الإلهي بالصدع برسالته ، ومكاشفة المجتمع الجاهلي بدعوته ، فساق لهم الحقيقة كاملة ، وهذا ملمح بلاغي إعلامي ، وهو العرض الموضوعي وقول الحقيقة ، والبعد عن إخفاء الحقائق ، والتعتيم الإعلامي ، وتزوير الحقائق ، وتلفيق الوقائع ، لما في ذلك من تلاعب بعقل المتلقي (١) . فقد أثبت التاريخ فشل التضليل والكذب في اكتساب القلوب ، وإقناع العقول ، إنها لم تكن تداولية جون أوستن ومن تبعه ، وانما هي العبقرية البلاغية لرسول الله صلى الله عليه وسلم

رابعا : **استخدام الوسائل المناسبة في بيان المقاصد الحسنة ، والغايات السامية**

فقد وفق رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى وسيلة تختصر مساحات المكان ، وتخاطب أكبر عدد من الناس في أسرع وقت ممكن ، فصعد جبل الصفا ، ولعل في هذا دلالة على أهمية العناية بالوسيلة ، والتأنق في فنون مخاطبة القوم لإقناعهم بالحق ، وحتى لا يكون سبب الإعراض عن الدعوة عدم تدقيق القائم بالدعوة في تخير المكان .

خامسا : **تخير المدخل الاتصالي المناسب** :

لقد كانت صيحة " يا صباحاه " التي استهل بها الرسول صلى الله عليه وسلم خطبة الصفا غاية البدايات الرائعة ، والاستهلال الحسن ، والمدخل المثير للانتباه والاهتمام ، والمحرك للوعي ، والملفت للنظر في مجتمع ديدنه الحروب

(١) من قضايا الإعلام في القرآن – رمضان لاوند – ط دار الهدف – الكويت – د ت – ص١٥٣ .

التي كانت تنشب بين قبائله لأتفه الأسباب ، لذا كان حسن الابتداء هـذا مفتاحـا لعقول القوم ، فجاؤوا زرافات ووحدانا ، حتى إن الرجل منهم كان إذا لم يسـتطع أن يخرج أرسل رسولا ، حتى امتلأت ساحة الصفا.

سادسا : **إشراك المتلقين في الحوار** :

وبلاغة هذا الأسلوب الحواري في الكلام له أثره الفعال في تحقيق الإقناع والاقتناع ، وهذا ما تؤكده الدراسات الاتصالية حيث تعد مـن مـؤهلات الإقنـاع بالرسالة الإعلامية إشراك الجمهور المتلقي في العمل الإعلامي [١] .

كما أن الدراسات الإعلامية تؤكد أيضـا علـى احتـرام إرادة الإنسـان ، وحريته الاتصالية ، والحوار والمناقشة [٢] .

والمتلقي هو الغاية من كلام المتكلم ، فإذا كان الناس لا يستمعون للمتكلم، ولا يستوعبون مقالته فالسكوت له أفضل من صرخة في واد .

سابعا : **القدرة على بث الثقة في المخاطبين** :

وهذا من أهم عوامل الإقناع في بلاغة الخطاب ، وهذا يعني ثقة المـتكلم بما عنده ،وبقيمه ، وأهدافه ، وغاياته السامية وثقة الناس في صدقه ، وأمانتـه وعدله ، وهذه الدلالة تؤكد على أهم مؤهلات بلاغة الخطاب النبـوي الشـريف ، الموجه من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي انتزع الله تعالى له إجماعا عاما من قريش بأنه الصادق الأمين ، كلمة قالوها ، وشاء الله أن تكون عليهم حجـة إلى يوم الدين ، وقريش شوكة العرب ، وهي عندهم المأمونة علـى حـرم الله، المحروسة بحراسة الله ، وحمايته لبيته وحرمه ، وخاصة بعد حادثة الفيل ، حيث عجز العرب قاطبة أن يقفوا في وجه أبرهة الحبشي ، ويمنعوا البيـت الحـرام ، ولكن الله حمى بيته وأهله ، ولذا كانت قبائل العرب تقول : (إذا دخلـت قـريش

---

(١) الاتصال وبحوث التأثير – د حمدي حسن أبوالعينين – ط القاهرة – ٢٠٠٣ م – ص ٤١

(٢) وظيفة الأخبار في سورة الأنعام – د سيد محمد الساداتي – ط عالم الكتـب – الريـاض – ١٤١٠ – ص ٣٥٢

الإسلام دخلنا)، لأنها قبيلة مؤيدة بتأييد الله لها ، فما أن فتحت مكة حتى سمي العام التاسع من الهجرة بعام الوفود لكثرة وفود العرب المسلمة .

ثامنا : **إحكام القول** :

وهذا يعني تنظيم طرح حقائق ومضامين القول ، إذ إن لكل حقيقة حدا لا ينبغي أن تتجاوزه ، والمساواة بين المضامين في بلاغة القول من أهم أسباب الاضطراب في التواصل ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يتجاوز حقيقة الألوهية والعبودية ، وحقيقة البعث والنشور ، والجزاء والحساب يوم القيامة ، وما ينتظره المحسنون من الجزاء والمثوبة ، والمعاندون الكافرون من الخزي والعذاب ، وإحكام بلاغة الخطاب من أبرز ما يميز الخطاب النبوي الكريم ، ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى وهو يعرف الحكمة : " أن يعطي كل شيء حقه ، ولا تعديه حده ، ولا تعجله عن وقته ، ولا تؤخره عنه " ثم يقول : " وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعا وقدرا ، فإضاعتها تعطيل للحكمة ، بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض ، وتعدي الحق كسقيها فوق حاجتها بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد ، ويعجلها عن وقتها كحصاده قبل إدراكه كماله " [(١)] .

والحكمة إذن إذا فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي كما جاءت عليه بلاغة خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تاسعا : **ربط بلاغة الخطاب بمسلمات الأمة** :

وذلك لأن الإطار المرجعي يقوم بتمرير المعلومات والمعارف المقبولة بناء على أساس المخزون المعرفي الذي تكوَّن نتيجة العوامل الثقافية المؤثرة على شخصية الإنسان ، بالإضافة إلى قيم المرء الدينية ، وتقاليده الاجتماعية ، ولذلك

(١) مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين– ابن قيم الجوزية – ط دار الحديث – القاهرة – د ت – جـ ٢ ص ٤٩٩

فإنه ينبغي على من يخاطب القوم مراعاة الرواسب الفكرية والاجتماعية [١] . وقد جاءت دلالة الطرح الخطابي بالمسلمات العقلية والفكرية والاجتماعية عندما بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم خطبة الصفا بقوله : " يا صباحاه " وهذا الهاتف له دلالة في مجتمع القبائل والعشائر التي يغير بعضها على بعض لأتفه الأسباب ، هذه الكلمة تعني : (الجيش صبحكم).

(يا بني فلان – يا بني فلان ـــ) يدعو العشائر القرشية بأحب الأسماء إليها ، وبما تعارفوا عليه في مجتمعهم ، ليثير فيهم النخوة والحمية ، ثم يوجه لهم الخطاب من خلال مسلَّمة في عقولهم ، وحتى يلزمهم بالحجة بدأ بسؤالهم : " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ ؟ " قالوا : (ما جربنا عليك كذبا) قال : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " فما تفوه أحد بكلمة ، إلا من سبقت عليه الشقوة في الدنيا والآخرة ، كما حدث من أبي لهب. .

عاشرا : **التكرار والملاحقة** :

هذه الدلالة تؤكد على أسلوب من أساليب الخطاب النبوي البليغ الذي يعين المتكلم على تقرير قضيته وتثبيتها في أذهان متلقيه ، وذلك كما هو هنا في بلاغة الخطاب النبوي حيث قد راعى بدقة بالغة الأوقات التي ينبغي أن يتم فيها هذا التكرار ، والظروف المرتبطة بها .

وتزداد أهمية هذا الأسلوب في الخطاب الدعوي الإسلامي لأنه احتفى به القرآن الكريم احتفاء عظيما لما له من الأثر النفسي في تثبيت المعنى وتقريره ، حتى يصبح عقيدة راسخة .

يقول الزمخشري رحمه الله تعالى عند تعليقه على أسلوب التكرار ، وبيان أثره في النفس الإنسانية ، عند تفسير قول الله تعالى : {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ

---

(١) بتصرف عن مقال (الرواسب الفكرية والاجتماعية عند الداعية وأثرها على دعوته) – د زيد بن عبد الكريم الزيد – مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – العدد ١٢ – ١٤١٥ هـ – ص ٢٠ – ٤٦

كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} [الزمر: ٢٣] " مثاني " بيان لكونه متشابها لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة والمثاني جمع مثنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه ، وإنبائه في أحكامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه " ثم قال : " فإن قلت : ما فائدة التثنية والتكرير ؟ قلت : النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة ، فما لم يكرر عليها عودا على بدء لم يرسخ فيها ، ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح "[(١)] .

ومما يؤكد هذا الأسلوب الفعال أن خطبة الصفا جاءت بأكثر من رواية ، فقد يكون مرجع ذلك إلى تكرار الموعظة ، أو أنها يكمل بعضها بعضا مع ما احتوته من تكرار في ثناياها .

حادي عشر : المسؤولية الدعوية ودرجاتها :

هذه الدلالة يؤكدها الانتقال من الإنذار العام إلى إنذار عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربين ، وكان من الممكن الاكتفاء بعموم الأمر الأول في قول الله تعالى : {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤].

فما الحكمة من خصوية الأمر بإنذار العشيرة ؟

الحقيقة أن في هذا الانتقال إلماحا إلى درجات المسؤولية التي تقع على عاتق من يدعو إلى القيمة العليا وهي توحيد الله تعالى والإيمان به، فأدنى درجات المسؤولية هي المسؤولية الشخصية، وهي مسؤولية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه، وإعدادها لهذا العمل العظيم، ومن أجل ذلك استمرت فترة ابتداء الوحي تلك المدة الطويلة، ريثما يطمئن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أنه نبي مرسل، وأن ما ينزل عليه هو وحي من الله عز وجل، فيوطن ذاته على حمل حقائق الإسلام وقيمه للناس ، فالعلم النافع قاعدة العمل الصالح ، ومن هنا فإن

---

(١) تفسير الكشاف – محمود بن عمر الزمخشري – ط مصطفى البابي الحلبي – القاهرة – ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م جـ ٣ – ص ٢٩٥

رجل الدعوة الحر لا بد أن يكون على علم بما يقدمه من معلومات وأفكار حتى يستطيع أن يؤثر في الناس .

الدرجة الثانية من درجات المسؤولية هي مسؤولية الإنسان تجاه أهله وعشيرته الذين يلوذون به للقيام بحق هذه المسؤولية ، خص الله تعالى الأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به .

أما الدرجة الثالثة فهي مسؤولية من يبلغ الدعوة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أداء لواجب البلاغ المبين .

وانطلاقا من هذه المسؤولية فإن وسائل الإعلام في المجتمع المسلم ينبغي أن تحسن الخطاب الإعلامي للأمة فتصمم برامج قائمة على أسس علمية دقيقة ، تقنع الناس ، وتكفل الاستجابة لها ، وذلك عندما تراعي خصائص المجتمعات التي توجه لها الرسالة ، وخلفياتها الفكرية والاجتماعية انطلاقا من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الصفا .

ثاني عشر : **المكاشفة والمصارحة في طرح القضية** :

هذه الدلالة تؤكدها نصوص خطبة الصفا جميعها ، فقد صدع الرسول صلى الله عليه وسلم بحقيقة الألوهية ، وحقيقة الإنسان ، وحقيقة الدين ، وحقيقة ما عليه ذلك المجتمع الجاهلي من حقيقة ما عاب على قومه أن يأسروا أنفسهم للتقاليد الموروثة عن آبائهم وأجدادهم ، دون تفكير ، ودون تحرير لعقولهم من أسر الاتباع الأعمى لجاذبية تلك المواريث التي لا تقوم على فكر ، ولا على منطق سليم

لقد كانت هذه الخطبة غاية في مفاصلة القوم على المبدأ ، كما كانت غاية في البلاغ ، إذ لم تكن طريقة أوجز من هذا البيان ، ولا أوضح ولا أبين منه ، فقد أوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق برسالة الإسلام هو أساس الصلة ، والرابطة الحقة بين النبي صلى الله عليه وسلم وقومه ، بل بينه وبين أقرب الناس إليه فاطمة ابنته .

والمكاشفة بالحقائق من أبرز ما يميز البلاغة النبوية التي لا تبالي بالمصلحة الشخصية ، ولا المكاسب السياسية المرحلية ، ولا يهتم بتحقيق أغراض وأعراض دنيوية طارئة ، فيتنازل وينادي بنصف الحقيقة ، أو يوافق على إجراء أي تسوية أو تأييد مشروط ....

لأنها البلاغة النبوية الهادفة الى نشر عقيدة التوحيد الملتزم بالأوامر والنواهي المتصلة به ، فلا يقول إلا الحق ، ولا يهدف إلا إلى إظهار دين الحق في الأرض .

من أجل ذلك تميز الخطاب النبوي بالوضوح والصراحة والواقعية ، دون مراعاة لمصلحة فرد ، أو فئة من الناس .

ثالث عشر : **أسلوب حسن العرض وفن الصياغة** :

هذه الدلالة تؤكدها نصوص هذه الخطبة جميعها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يبتكر جديدا في ألفاظ اللغة العربية التي بنيت منها الخطبة ، ولكن الأمر أمر حسن الاختيار في تلك الألفاظ والأوضاع ، أيها أحق بالأخذ لتأدية الغرض سواء بالنسبة للألفاظ المفردة باعتبارها اللبنات التي تصاغ منها الجمل ، أو طريقة تركيب الجمل وصياغة العبارات ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخير أشرف المواد ، وأمسها رحما بالمعنى المراد ، ويضع كل لفظ في موضعه الذي هو أحق به بحيث لو استبدل لفظ بآخر ، أو أن تغير لفظ عن موضعه لضاع المراد .

وأسلوب العرض الجيد لا تخفى أهميته في البلاغة العالية ، وما كان إخفاق كثير من الدعاة إلا بسبب إغفالهم لهدي النبي صلى الله عليه وسلم في استخدام بلاغة القول ، وفن صياغة الرسالة الاتصالية لإقناع الناس بمبادئ الإسلام وقيمه .

أول خطبة في المدينة

لقد كانت الهجرة النبوية فتحا عظيما للدعوة الإسلامية ، كما كانت نقلة كبيرة لبلاغة الخطاب النبوي الشريف ، حيث تعد هذه الخطبة قاعدة لإعلام جماعة المسلمين في مجتمع قائم ، وشريعة مطبقة ، ولذا فإن هذه الخطبة هي في الحقيقة نموذج لشكل من أشكال الخطاب النبوي الكريم في المجتمع الإسلامي بما يسمى الاتصال الجمعي ، حيث يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من المسلمين متجانسة ، عقيدتها واحدة ، وإيمانها واحد ، وقيمها السائدة ومعاييرها وأفكارها ، متجانسة .

ولهذا فإن الخطاب النبوي سيأتي بلا شك مختلفا عن متطلبات خطبة الصفا، التي كانت الخطبة آنذاك موجهة إلى القوم والعشيرة من أمة الدعوة ، وليس لأهل الرابطة الإيمانية .

الروايات الصحيحة للخطبة

روى ابن كثير عن ابن جرير قال : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب عن سعيد بن عبد الرحمن ، أنه بلغه عن خطبة النبي صلى الله عليه وسلم ، في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عون رضي الله عنهم : " الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، وأستغفره ، وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، والنور والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلم وما كان من سوء يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ، {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ } [آل عمران: ٣٠] هو الذي صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خلف لذلك ، فإنه يقول تعالى {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}

[ق: ٢٩] واتقوا الله في عاجل أمركم واجله ، في السر والعلانية ، إنه : {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق: ٥] {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧١] وأن تقوى الله توقي مقته ، وتوقي عقوبته ، وتوقي سخطه ، وأن تقوى الله تبيض الوجه ، وترضي الرب ، وترفع الدرجة ، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ، ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيَّ عن بينة ، ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد الموت ، إنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " [١] .

وللخطبة نص آخر فيما رواه ابن كثير رحمه الله تعالى ، ولعلها كانت الخطبة الثانية للجمعة الأولى بالمدينة المنورة استكمالا للخطبة السابقة ، وهي في الغالب كانت الخطبة الأولى لذات الجمعة . فقد روى ابن كثير رحمه الله عن البيهقي ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنهما قال (كانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : " أما بعد أيها الناس : فقدموا لأنفسكم ،

---

(١) السيرة النبوية – ابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد – ط دار المعرفة – بيروت – ١٤٠٢ هـ – جـ ٢ – ص ٢٩٩ وما بعدها ، وانظر الخطبة أيضا في البداية والنهاية – ابن كثير – منشورات مكتبة المعارف – بيروت – جـ ٣ – ص ٢١٣ ، وايضا سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد – محمد بن يوسف الصالحي – تحقيق عادل محمد عبد الموجود _ دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٤هـ – جـ ٣ – ص ٣٣١ وايضا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم – محمد الصادق ابراهيم عرجون – ط دار القلم – دمشق – ١٤٠٥ هـ – جـ ٢ – ص ٥٨٢

تعلمن والله لَيُصعَقَنَّ أحدكم ، ثم لَيَدَعَنَّ غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولَن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ، وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم ينظر قُدَّامَه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار – ولو بشق تمرة – فيلفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشرَ أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم، وعلى رسول الله، ورحمة الله وبركاته "(١) .

وقد أورد ابن كثير رواية ثالثة للخطبة فقال : " ثم خطب الرسول صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فقال : " إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقسُ عنه قلوبكم ، فإن من كل ما يخلق الله يختاره الله ويصطفي ، فقد سماه خيرته من الأعمال مصطفاه من العباد، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم ، وإن الله يغضب أن يُنكَثَ عهده ، والسلام عليكم ورحمة وبركاته "

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : " وهذه الطرق مرسلة ، إلا أنها مقوية لما قبلها وإن اختلفت الألفاظ "(٢) .

---

(١) السيرة النبوية – مرجع سابق – جـ ٢ ص٣٠١ – وHيضا : البداية والنهاية – ابن كثير – مرجع سابق – ص ٢١٢ ، وكذا – حياة الصحابة – محمد بن يوسف الكندهلوي – تحقيق نايف المجداس – ط – الراجحي بالرياض – ١٤٠٣ هـ جـ ٣ – ص ٣٩١

(٢) ابن كثير – البداية والنهاية – مرجع سابق – جـ ٢ ص ٣٠١،٣٠٢

وهو يعني بقوله : (وهذه الطرق مرسلة) الروايتين الثانية والثالثة ، وهما اللتان رواهما البيهقي بسنده عن شيخه أبي عبد الله الحافظ المعروف بالحاكم صاحب المستدرك .

وهذه الخطب وإن كانت مرسلة فإنها في جملتها على منهاج النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحمل بما لا يدع مجالا للشك سمات بلاغة الخطاب النبوي القويمة ، وغايتها دعوة المؤمنين لتقوية إيمانهم وتغذيته بتقوى الله تعالى ، ولولا أن الحفاظ الثقات من أمثال ابن كثير والبيهقي أوردوها ما أقدمت على نقلها، وقد أخرج ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة بألفاظ أخرى .

وهذه الروايات يقوي بعضها بعضا ، كما أن بعض عبارات هذه الخطب قد وردت في الأحاديث الصحيحة .

الدلالات البلاغية للخطبة

إن هذه الخطبة التي تكمل رواياتها بعضها بعضا قد اشتملت على قيم بلاغية كثيرة ومتنوعة ومختلفة عما كانت عليه خطبة الصفا ، وسوف أعرض لأهمها موازنا بين ما جاء في هذه الخطبة وما جاء في خطبة الصفا والله المستعان :

أولا براعة الاستهلال :

وهي البداية المثيرة للاهتمام والمشيرة إلى غاية الخطبة ، وهذا الاستهلال ينطلق من المسلمات الفكرية والعقدية التي يتميز بها مجتمع مسلم موحد لله تعالى، وهذه البداية مناسبة لما عليه المخاطبون من معتقد بسيط وبعيد عن التعقيد وقريب من الموضوع الذي يرغب البليغ طرحه عليهم ، والمتتبع لخطب الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك اختلاف البداية المثيرة للانتباه من خطبة إلى أخرى تبعا لموضوع الخطبة من جهة ، وطبيعة الجمهور المستقبِل من جهة أخرى ، ففي خطبة الصفا نرى الصيحة مدوية بالاستغاثة النادبة والمنادية لحشد

العشائر في أسرع وقت ، وبأكبر عدد ، فقد رأينا : " يا صباحاه ... يا بني فلان ... يا بني فلان ... انقذوا أنفسكم من النار " لأنهم قوم واقعون في الكفر والشرك وغايته تخليصهم وانقاذهم مما هم واقعون فيه ،

أما في خطبة الجمعة الأولى في المدينة المنورة فإن الأمر يختلف ، إذ إن هؤلاء قوم مؤمنون موحدون ،فقد اختفت النعرات العرقية الجاهلية ، وبناء الرأي العام المستنير على أساس عقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد

ففي هذه الخطبة نرى نقلة كبيرة في مستويات التأثير في بلاغة الخطاب النبوي الشريف ، فمن الخطاب الدعوي للجماعات الأولية البسيطة المتمثلة في الأفراد والجماعات العشائرية المحدودة ... إلى مستوى الأمة ذات الرابطة القائمة على أساس العقيدة والمبادئ الإسلامية الخالدة بدل النعرات العرقية الجاهلية ، هذا بالإضافة إلى اعتبار أن الجمهور الذي كان يتلقى هذا الخطاب النبوي لم يكن هو المقصود بالمضامين الدعوية فقط ، وإنما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعد هذه الجماعة لتولي أعباء قيادة الأمة الإسلامية ، تلك القيادة الراشدة التي أخرجت الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان ، ومن جور الجاهلية إلى عدل الإسلام ، ومن تسلط النظم والفلسفات المادية إلى آفاق الحرية الحقة في رحاب الإسلام ... فجاء قوله صلى الله عليه وسلم :" الحمد لله ، أحمده ..." ويلحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم حمد الله تعالى مرتين : – الأولى بالاسم " الحمد لله " ، وفيه دلالة الثبوت والدوام ، والثانية بالفعل :" أحمده " وفيه دلالة على التجدد والحدوث ، وبذلك يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دل على حمد الله تعالى بطريقين ، حتى يجمع كل المحامد لله تعالى ، وليدل أيضا على أن حمد الله تعالى يختلف عن كل حمد ، ويفوق كل حمد ، فهو حمد لا نهائي ، ولا محدود ، ولا تحكمه قاعدة تعبيرية مما هو متداول بين سائر المخلوقات ، على نعم لا تحصى قدرا ولا عددا ، فهذا الحمد أدعى لإجابة ما طلِب بعده من قوله صلى الله عليه وسلم : " وأستعينه ، وأستغفره ، وأستهديه " فالعون والمغفرة

والهدى كلها مطلوبات عطفت على هذا الحمد الشامل ، فمع قبول الحمد يُرجَى قبول ما بعده ، وهذا تعليم للأمة وتشريع لها بأن تُستَهل الخطبة بحمد الله تعالى ليكون الحمد هو المبدأ والغاية والمنتهى .

براعة الاستهلال في هذه الخطبة حمد الله تعالى ، وطلب العون والمغفرة والهدى ، وهذا لا يتناسب مع بيئة جاهلية كافرة مشركة ، وقبلية متعصبة ..كما كان الأمر في خطبة الصفا ، ولو أنه استهل خطبة الصفا بمثل ما استهل به أول خطبة جمعة بالمدينة لما سمعه أحد ، لأنه سيكون خطابا لهم بما لا يعرفون ، بل بما ينكرون ويبغضون ، وبالتالي لن يتقبلوا ما يقول لهم بعد إغضابهم .

فبراعة الاستهلال في خطبة المدينة تناسب قوما آمنوا وعرفوا ربهم المنعم عليهم ، فلن يزيد الحمد لله قلوبهم إلا طمأنينة ، ولا يملأ صدورهم إلا انشراحا .

ولما أن كان الحمد الذي هذه صفاته لا يتحقق إلا بعون الله تعالى وتوفيقه .. عطف عليه طلب العون فقال : " وأستعينه " إذ لا طاعة إلا بتوفيق من الله تعالى لها ،ولما أن كانت الذنوب حائلا دون توفيق الله تعالى وهدايته من جانب ، ومن جانب آخر فإن الصالحات مهما بلغت فإنها دون توفية حق الله تعالى في إنعامه على العبد عطف رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستغفار فقال : " وأستغفره " ، ثم طلب الهداية بعد ذلك حتى لا يضل الطريق فقال : " وأستهديه " استهداء الواثق بربه فيعلن مجددا إيمانه :" وأومن به " ، ثم يؤكد هذا الإيمان بنفي الكفر فيقول : " ولا أكفره " .

ثم ينتقل من الحمد والاستعانة والاستغفار وطلب الهداية إلى مرحلة جديدة ، وهي تجديد الإيمان بالله تعالى ، وتأكيد ذلك الإيمان بنفي الكفر ، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : " وأومن به ، ولا أكفره " وما لهذه الأفعال المضارعة " أومن .. لا أكفره" وما توحي به من ضرورة تجديد الإيمان حينا بعد حين ، والتصدي للكفر كلما ظهر ، وكيفما ظهر ، ثم بالنظر من جهة أخرى إلى نفي

الكفر نجده تمهيدا لما عُطِف عليه بعد ذلك مباشرة في قوله :" وأعادي من يكفره" وهذا تصعيد لنفي الكفر فإنه لم يقف فقط عند نفي الكفر ، وإنما جاوز ذلك إلى معاداة من يكفر بالله تعالى ، بنفس نبرة التجدد بالفعل المضارع " أعادي "

كما أن في قوله : " وأعادي من يكفره " ليرسي صلى الله عليه وسلم بذلك مبدأ الولاء والبراء إذ لا ولاء إلا بالإيمان ، ولا براء إلا من الكفر ، وهذا إيجاز رائع للسياسة النبوية الحكيمة التي ينبغي أن تبنى عليها الحضارة الإسلامية التي ترهب عدو الله وعدو المسلمين .

وبعد أن أرسى مبادئ الولاء والبراء انتقل إلى أساس الإيمان وهي كلمة التوحيد وشهادة الحق .. فقال : " وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له " وهنا نلحظ فصل جملة " وحده لا شريك له " لأنها مؤكدة لما قبلها " أشهد أن لا إله إلا الله " فبين الجملتين كمال اتصال منع العطف بينهما لأنهما كالجملة الواحدة، وإن الشيء لا يعطف على نفسه ، ثم أكد شهادته بالوحدانية بتأكيدين : الأول هذا التصريح المطلق " وحده " ، والثاني بنفي الشريك " لا شريك له " بـ " لا " النافية للجنس الدافعة والمبطلة لجميع الشركاء نفيا قاطعا شاملا مستوعبا ، ثم فصل بين جملة " لا إله إلا الله وحده " وجملة " لا شريك له "..، للتوسط بين الكمالين إذ إن الجملة الثانية " لا شريك له " عين معنى الجملة الأولي " لا إله إلا الله وحده " ليقرر التوحيد في أذهان السامعين كما هو مقرر في نفسه صلى الله عليه وسلم

ثم أدخل في هذه الشهادة بواو العطف عبوديته ورسالته صلى الله عليه وسلم " وأن محمد عبده ورسوله " ليفيد ذلك الوصل أن الثانية مكملة للأولى إذ إن الشهادة لله بالوحدانية ، وللرسول بالرسالة أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر .. ، وفي تقديمه العبودية خروج من حوله وقوته إلى حول الله تعالى وقوته ، وأن الرسالة من حول الله وقوته ، ولا يملك من دون الله فيها شيئا ، وفي ذلك

تأكيد على عبودية المرسل إليهم لله رب العالمين إذ إن هذا أولهم وأولاهم صلى الله عليه وسلم يعلن عبوديته لله الواحد سبحانه .

وفي قوله : " وأن محمدا عبده ورسوله " بيان لتمام الشهادة ، وذلك بالعطف على جملة " أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له " فبين الجملتين توسط بين الكمالين أوجب الوصل ليفيد أن الجملة الثانية قد شاركت الأولى فلا تنفك عنها ، وفي تأكيد الوحدانية والرسالة ب (أن) واسمية الجملة وكلمة " أشهد " تقرير نفسي لابد من أن يملأ نفس وعقل وقلب واعتقاد المؤمن قبل أن يواجه بذلك .

ومما هو داخل في براعة الاستهلال إعلان التوحيد المتجدد كلما تجدد حال يدعو آليه ، وذلك قوله :" واشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله " وهي الكلمة الفاصلة بين الكفر والإيمان ، جاءت بأسلوب الدلالة على التجدد في " أشهد " ، ثم هذا القصر الحقيقي التحقيقي الذي جاء على طريق النفي والاستثناء الذي يواجَه به إنكار كل منكر نافيا الألوهية عن كل ما عدا الله الواحد الأحد .

ثم نرى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه بصفات تبين المهمة الأولى له ، وذلك في قوله :" أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل " وكأن سائلا يسأل : لماذا هذا الإرسال ، ويجيب بأن سبب الإرسال إنما هو الهدى ودين الحق والنور والموعظة ، وبالنظر إلى تلك المعطوفات المتلاحقة نرى أن بعضها يبين البعض الآخر ، ويقرره في أذهان السامعين ، ثم نرى تعليلا يقنع العقول ، ويريح النفوس في قوله : " على فترة من الرسل ،وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل " نلاحظ أيضا تلاحق المعطوفات التي يوضح بعضها بعضا .

كما نلحظ تشابه البناء التركيبي إذ إن كل جملة بنيت من مصدر وجار ومجرور متعلق بهذا المصدر .. ليسهل على السامع حفظ ورواية ما يسمع من خطاب النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم ينتقل الخطاب النبوي الشريف إلى لون بنائي جديد ، يتجدد معه نشاط العقل والقلب ، فيورد جملتين شرطيتين تؤكد ثانيتهما أولاهما بأسلوب التقابل فيقول :" من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا "

ثم يبين مهمته التي كلفه الله تعالى بها في قوله :" أرسله بالهدى ، ودين الحق ، والنور ، والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل "

<u>وبيان تلك المهمة يتضمن أمورا : –</u>

الأول : أنه صلى الله عليه وسلم مُرسَل يبلغ رسالة ربه ، وفيه إشارة إلى أن من أطاعه فقد أطاع الله ، فله الرضا وحسن الجزاء من الله تعالى ، ومن عصاه فقد عصى الله تعالى ، فهو على خطر من أمره ، فهذا المهمة لخصها النبي في كلمتين التبشير والإنذار .

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم سبب هذه المهمة ، وكأن سائلا أراد معرفة أسباب مهمته ، ففصل قائلا :" أرسله بالهدى .... " فالهدى ، ودين الحق، والنور ، والموعظة ، ... كل ذلك أسباب تكليفه صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة ، ويلحظ الوضوح والتنوع بين الحقائق والمجازات ليزيد الأمر بيانا فنرى الاستعارة في الهدى المعنوي الذي يقع موقع الرسالة التي يحملها الرسول إلى من أُرسل إليهم ، وكذا (دين الحق) و (النور) و (الموعظة) كلها معنويات كستها الاستعارة أثواب المُحسَّات لتبين وتتمكن في القلوب أفضل تمكن .

ثم يعلل رسالته بتعليلات أخرى فيفصل قائلا :" على فترة من الرسل ،وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب

من الأجل " ، وكلها مبررات يأخذ بعضها بحجز بعض في بيان خطورة الموقف ، ومدى حاجة الناس إلى هذه الرسالة المباركة .

ثانيا : استثارة الدوافع الإيمانية والإنسانية معا

فقد جاء الحث على طاعة الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وربطه بالرشد ،، وحذر من معصيتهما وربط ذلك بالغواية والتفريط ، والضلال ، وذلك من خلال جملتين شرطيتين مستأنفتين ومترتبتين على ما سبق من كلام ليجيب عمن يسأل : وبم تأمرنا هذه الرسالة من الله تعالى ؟ يقول : " من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا " نلحظ التشابه البنائي في تركيب الجملتين الشرطيتين المتقابلتين في المعنى إلا أن الأولى جمعت الفلاح كله في كلمة " رشد " المؤكدة ب " قد " ، أما الجملة الشرطية الثانية فقد نوعت الغوايات بعطف بعضها على بعض " ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا " فجعل الغواية والتفريط والضلال البعيد في مقابلة الرشد في الجملة الأولى ، وقد يكون مرجع ذلك إلى كون الحق له طريق واحد ، لكن الباطل تتعدد طرقه .

كما أمر بتقوى الله تعالى في صورة وصية حتى لا تشق على النفس المتلقية : " وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ ، أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله " نرى كيف أنه أوصي ثم علل الوصية حتي تستريح العقول المتلقية لبيان علة الوصية فنرى فاء السببية مبرزة لهذه الغاية " فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله " فجعل نفسه واحدا من المسلمين ليبرز تواضعا يضفى على البلاغة النبوية جمالا وجلالا يؤسس لمبدأ المساواة بين المسلمين ، وذلك خير ما يشرح الصدور ويبني الأمم ويقيم الحضارات.

ثالثا : الأمر بتقوى الله تعالى :

وذلك إعلاء لمبدأ العقيدة المؤسسة على تقوى الله تعالى ، لأنه صلى الله عليه وسلم بصدد بناء أمة ذات حضارة ربانية وإيمانية شاملة قوامها عقيدة التوحيد الخالص لله رب العالمين بحقها وعدلها ورحمتها وتعاونها ... وذلك واضح في قوله صلى الله عليه وسلم : " وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله منه نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى ، وإنه لتقوى لمن عمل به على وجل وفخامة ، وعون وصدق على ما تبتغون من أمر الآخرة " فأساس البناء الأول للحضارة الإسلامية تقوى الله تعالى التي أوردها رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطابه بأكثر من طريقة بنائية:-

الأولى الوصية بالتقوى : وذلك في قوله : " وأوصيكم بتقوى الله " والوصية تكون للحبيب الحريص على صلاح أمر حبيبه ، وذلك تلطف بالأمة ببيان الحرص على ما يصلح أمورهم ، هذا الحرص المتجدد مع تجدد الفعل المضارع " أوصيكم " والذي يحمل في طياته رائحة الأمر المراد به النصح والإرشاد للأحبة ، أي أجدد لكم الوصية كلما تجدد لكم موقف من المواقف جددوا معه تقوى الله تعالى ، وتقوى الله تعالى : تحاشي غضبه بأن لا يجدنا حيث نهانا ، ولا يفقدنا حيث أمرنا .

ثم نرى الفاء التي تبين وتفصح عن سبب ما ذكر قبلها في قوله :" فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ " نرى هذا التأكيد ب (إن) التي هي أم باب التأكيد .. يتلوها اسمها ضمير الشأن الذي يبين هذا الشأن الجليل الذي هو التواصي بالتقوى لله سبحانه ، ولإزالة الشك والريب من نفوس المخاطبين ، وللحرص على تقرير الأمر وتثبيته في نفوسهم .

ثم نرى خبر (إن) أفعل تفضيل(خير) ليعلي من قدر التواصي بالتقوى بأن ذلك خير ما في الدنيا ، وهو ملاك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ثم هذا الشمول المدلول عليه باسم الموصول (ما) ليعم كل شيء على الإطلاق

وفي قوله " ما أوصى به المسلمُ المسلمَ" بيان للصفة الجامعة الموجبة لهذا التواصي وهي الإسلام إذ بمجرد الدخول في الإسلام يجب العمل على الإصلاح العام ، وأول هذا الإصلاح الأمر بالتقوى وهي إصلاح السر والعلانية مع الله تعالى فهو الأساس الأول الذي لا يقوم إصلاح إلا عليه .

وخير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ هذا أمر مجمل ، تبينه بلاغة الخطاب النبوي الشريف بتفصيله في قوله صلى الله عليه وسلم شارحا مراده من هذه التوصية " أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله " فالحض على الآخرة ، والأمر بتقوى الله .. تفصيل لإجمال سابق في " ما أوصى به المسلمُ المسلمَ " والتعبير بالفعل المضارع " يحضه " ، و " يأمره " أفاد معنى التجدد للحض على الآخرة ، والأمر بالتقوى كلما تجددت الحاجة لذلك ، وفي تكرار " المسلمُ " فاعلا و" المسلمَ " مفعولا به دلالة على وجوب تبادل تلك التوصية ولا تقتصر على مسلم دون مسلم آخر ، وأن الإسلام يوجب التواصي بما فيه النفع للمسلم .

التحذير :

وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : " فاحذروا ما حذركم الله من نفسه " نرى العطف بالفاء التي تفصح عن بيان السبب للحض على الآخرة ، والأمر بتقوى الله تعالى ، أي احذروا عدم اتباع تلكم الوصية ، لأنه مغضب لله تعالى ، ويزيد التحذير رهبة حينما يجعل التحذير من الله تعالى نفسه بهيمنته وجبروته سبحانه .

وفي بيانه صلى الله عليه وسلم لأهمية هذه النصيحة وتلك الذكرى يقول " ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى " وأول ما يلفت النظر ههنا تكرار البناء التركيبي (ولا أفضل من ذلك كذا) وفيه تقرير وتنبيه على أهمية النصيحة والذكرى في الإسلام ، وهذا البناء التركيبي عبارة عن (لا) النافية

للجنس وهي تفيد استيعاب أفراد ما دخلت عليه ، يتلوها أفعل التفضيل بذات بنية الفعل المصرح بالتفضيل (أفضل) ليزيد الأمر وضوحا وجلاء لتستوعبه العقول المتلقية على تفاوت قدراتها الاستيعابية ، ثم نرى أن المختلف هو التمييز الذي اختتمت به العبارتان الأولى (نصيحة ، والثانية (ذكرى) ، وبالتأمل نرى أنهما متقاربان في المعنى إذ إن الذكرى ثمرة النصيحة وغاية لها ، وذلك زيادة تقرير وإيضاح ، وبيان أهمية تلك الذكرى الغالية التي أثمرتها النصيحة العالية .

ويفصل فائدة هذا التواصي والتذكير في قوله صلى الله عليه وسلم : " وإنه لتقوى لمن عمل به على وجل وفخامة ، وعون وصدق على ما تبتغون من أمر الآخرة " نبصر القيد البين في قوله : " على وجل وفخامة " إذ ليس النصح والتذكير والتواصي متوقفا عند العبارات أو الشعارات ، وإنما مدار الأمر على العمل على وجل وفخامة أي على خوف من الله تعالى وتعظيم لشأنه سبحانه ، وما أفاد ذلك إلا القيد بالجار والمجرور الذي دقق العبارة وأوضح المراد منها ، ثم أن هذا الأمر عون وصدق على ما تبتغون من أمر الآخرة ، فتقييد ما تبتغون بكونه من أمر الآخرة بيان للغاية الحقيقية من تقوى الله تعالى والتذكير به وأن المراد الفلاح والنجاة في الآخرة وليس في الدنيا ، والتعبير بالمصدر (عون) تركيز على الحدث أي معين إعانة تامة تجعله هو العون ذاته ، وليس المعين ، وبناء تلك العبارة على التوكيد ب (إن) واسمية الجملة ولام القسم ... كل ذلك مقرر للمعنى ومثبت له في أذهان المخاطبين .

ويعرض الرسول صلى الله عليه وسلم المعنى ذاته بعبارة أخرى لينوع في طرق التعبير، وهذا أساس يبنى عليه الخطاب البليغ ، حتى يتوصل إلى أقصى غايات الإفهام ، وإقامة الحجة على السامعين .. فنرى هذه العبارة التي بنيت على الشرط في قوله : " ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية ، لا ينوي بذلك إلا وجه الله ، يكن له ذخرا في عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد

الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوء يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا، {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ } [آل عمران: ٣٠]

فالأمر بالتقوى والتواصي فيما بين المسلمين هو ملاك الأمر ، والقطب الذي عليه مدار الخطبة كلها ، وواضح في هذه العبارة التي بين أيدينا ، والمصدَّرة بالشرط (ومن يصلح الذي بينه وبين الله ....) ليست بشيء غير التقوى القائمة على مراقبة الله تعالى .

يلحظ أن جملة الشرط قد طالت بعض الشيء حتى تشوق إلى الجواب ، ليحوز اهتمام وعناية المتلقي ، ثم اشتمال جملة الشرط على هذا التفصيل (في السر والعلانية) جاء هذا القيد تفصيلا للإجمال الوارد في جملة الصلة (ما بينه وبين الله) فقد أفاد التعبير بالموصول (ما) الدلالة على عموم السر والعلانية ، ومعروف أن التفصيل بعد الإجمال يزيد المعنى وضوحا وتقريرا .

وفي متعلق جملة الصلة (بينه وبين الله) مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم للقلوب والضمائر التي هي محل الخشية والتقوى والمراقبة ، وقد زاد هذا الأمر توكيدا في الجملة التالية (لا ينوي بذلك إلا وجه الله) فقد جاءت مفصولة عن الجملة قبلها لما بين الجملتين لوقوع الجملة الثانية توكيدا للجملة الأولى .

وبعد توضيح الشرط وتثبيته أفضل تثبيت يأتي الجواب في قوله : " يكن له ذخرا في عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قدم " أي أن كل ما مضى من التقوى والتواصي وإصلاح ما بينه وبين الله تعالى ... ثمرة ذلك كله في جواب الشرط (يكن له ذخرا في عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت) وفي تعبيره بقوله : (ذخرا) شبه الأمور المعنوية من تقوى وتواص ومراقبة وهي كلها أمور معنوية بالمال المحس أو المتاع النافع يدخر لوقت الحاجة إليه ، وفي تجسيد الأمور المعنوية بيان وإيضاح إذ إن إدراك الأمور المحسوسة أيسر وأسرع من إدراك المعنويات التي هي بحاجة إلى إعمال فكر ، وقدح زناد عقل .

ثم إن هذا الذخر ينفعه (في عاجل أمره) أولا ليعجل لهم بذلك المثوبة على أعمالهم وتقواهم في الدنيا لعلمه صلى الله عليه وسلم بأن الإنسان خلق من عجل وهو دائما يتعجل كل خير .

وفي إعادة كلمة (ذخر) وكان يمكنه إضمار لسبق التعبير بالاسم الظاهر قبل ذلك .. وضع للمظهر في موضع المضمر ، وهو خروج للكلام على خلاف مقتضى ظاهر الحال ، وهذا ليثبت بذلك الطمأنينة في القلوب ، ويتألف بذلك النفوس .

ثم يبين أهمية هذا الذخر في قوله : (حين يفتقر المرء إلى ما قدم) وهذا تقييد بزمان يكون المرء فيه أحوج ما يكون إلى حسنة واحدة قدمها ، وفي ذلك حث للإكثار من الحسنات وعمل الصالحات إذ هي العملة التي لا يروج في الآخرة غيرها .

وفي المقابل تحذير شديد الوقع لمن ترك الصالحات وعمل السوء ، وذلك في قوله : " وما كان من سوء يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد " نلحظ بوضوح إشراقة العبارة القرآنية المضمنة في الخطاب النبوي الشريف ، والتي تخير لها موضعها الملائم بدقة فائقة لها ، فهي قد دعمت بإعجازها القاهر البلاغة النبوية الشريفة ، فهما جملتان ، تضمنت الأولى تحذيرا عظيما إذ إن الله تعالى يحذرنا نفسه بجلاله وكماله وقهره وجبروته من أن نفعل ما يجر علينا غضبه أو يحِل بنا سخطه ، فالضمير العائد على العباد (كم) مفعول أول للتحذير ، و (نفسه) المفعول الثاني للتحذير ، وفي تقارب المفعولين بهذه الطريقة الدلالة على أعلى درجات التهديد لمن لم يحذر .

وأما الجملة الثانية " والله رؤوف بالعباد " فبيان لمبدأ عام ، وصفة جامعة من صفات المولى سبحانه وهي رأفته بالعباد ، ومن رأفته بالعباد هذا التحذير المتقدم.

ثم ينتقل الخطاب النبوي الشريف إلى توكيد عاقبة التقوى والتواصي بالعمل الصالح وأنه الفلاح في الدنيا والآخرة ، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : " هو الذي صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خُلف لذلك ، فإنه يقول تعالى : {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [ق: ٢٩].

فهذا تطمين للنفوس ، وترضية للقلوب بأن وعد الله تعالى حق وصدق (هو الذي صدق قوله) نرى المسند إليه ضميرا عائدا على المولى جل شأنه ليمهد النفوس لتلقي الخبر الذي هو اسم موصول يفيد أن جملة الصلة أمر ثابت لله تعالى ولا منازع فيه وهي صدق القول ، وقد ساقه بصيغة الماضي (صدق قوله) ، وفيه دلالة على الثبوت الذي لا شك فيه إذ هو في ثبوته كأنه مضى وتحقق ولا شك في وقوعه ، وفيه بشارة لجميع المسلمين بأن ثمرات التقوى والعمل الصالح والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر وهو فلاحهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة واقع لا محالة لأنه وعد الله تعالى الدي صدق قوله .

ثم نرى التوسط بين الكمالين الذي أوجب العطف بن الجملتين (هو الذي صدق قوله وأنجز وعده) فبين الجملتين اتفاق في الخبرية مع وجود الجامع.

ثم يؤكد بنوع آخر من التأكيدات وهو الاستشهاد بالقرآن الكريم فقال صلى الله عليه وسلم : " لذلك فإنه يقول تعالى : {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [ق: ٢٩]

والاستشهاد بالقرآن الكريم مؤكد مضاف إلى المؤكدات السابقة على ثبوت جزاء المتقين المصلحين المتواصين فيما بينهم بالتقوى والعمل الصالح ، وهنا يمكننا القول بأن من جلال الخطاب النبوي الشريف الإلحاح على المعاني المهمة التي لا يقوم الإسلام وحضارته إلا عليها .

وتضمين القرآن الكريم من خصوصيات الخطاب النبوي الشريف وفيه تعزيز وتقوية للمعاني ، ونقل لمراد الله من العباد وذلك أساس مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم يعود صلى الله عليه وسلم إلى حديث الأمر بالتقوى ، لكن في هذه المرة يدعمه بتضمين حديث الله تعالى عن التقوى فيقول صلى الله عليه وسلم : " واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية ، إنه {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق: ٥]

نرى الأمر بالتقوى شاملا السر والعلن ، وفي عاجل الأمر وآجله ويدلنا على ذلك ويؤكده لنا هذا الطباق الرائع (عاجل أمركم وآجله) وفي قوله (في السر والعلانية) وما لهذا الطباق من أثر في التوكيد والبيان فإن الضد يظهر حسنَه الضدُّ .

ويشفع هذا البيان المؤكد بالاستشهاد من كتاب الله تعالى " فإنه {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق: ٥] فيقدم النبي صلى الله عليه وسلم ب(إن) أم باب التوكيد يتلوها اسمها الذي هو ضمير الشأن ليزيد التوكيد قوة وثبوتا ثم تأتي الآية الكريمة : {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق: ٥] ليؤكد وعد الله تعالى بتكفير السيئات وإعظام الأجر إذ إن مدار الخطبة كلها على معاني التقوى والتواصي بها والعمل الصالح بمقتضاها .

ثم نرى آية تتلو الآية السابقة تبين فضل طاعة الله المترتبة على تقواه في قوله تعالى : {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } [الأحزاب: ٧١].

وهي جملة شرطها المواظبة على طاعة الله تعالى وتجديدها كلما جد لها مقتضى، وذلك باستعمال المضارع (يطع)، ثم بين أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة لله جل وعلا في عطف طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم على طاعة الله تعالى وجوابها مؤكد ب (قد) والفاء داخلة على الجواب لتبين مدى ارتباط الفوز العظيم بطاعة اللهتبارك وتعالى وطاعة رسوله صلى اللهعليه وسلم .

ثم إن مجيء الوعد بالفوز العظيم بصيغة الماضي فذلك للدلالة على تحقق الوقوع الذي لا ريب فيه وكأنه قد وقع ومضى وثبت بما لا يدفعه دافع .

ووصف العظيم سبحانه الفوز بالعظيم تلك بشارة عظيمة لأنه إذا وعد العظيم بفوز عظيم فهنيئا لهؤلاء الطائعين بهذا الفوز الذي لا حد لعظمته ، وكون الفوز نكرة ، والعظيم نكرة هذا يزيد يجعل هذا الفوز لا نهائيا ولا يحيط به وصف.

ثم يفصل القول في ثمرات تقوى الله تبارك وتعالى فيقول صلى الله عليه وسلم : " وإن تقوى الله توقي مقته ، وتوقي عقوبته ، وتوقي سخطه ، وإن تقوى الله تبيض الوجه ، وترضي الرب ، وترفع الدرجة "

نلاحظ أن في كل جملة من تلك الجمل القصار التي كانت خبرا ل (إن) المؤكدة وما عطف عليها .. قد تركبت من فعل مضارع مسلط على ما يحرص المؤمن على توقيه (وإن تقوى الله توقي مقته) فهذا الجناس بين (تقوى) و (توقي) كأنه خدعنا عن الفائدة وقد أداها ، وأوهمنا أنه لم يزد وهو قد أحسن الزيادة ووفاها إذ إن التقوى تقي مقت الله تعالى فترفع الحاجز عن العطاءات الربانية فإن الله تعالى إذا رضي أعطى بلا حدود نسأل الله تعالى رضاه .

ويترتب على وقاية المقت وقاية العقوبة ، ووقاية السخط ، والجمل موصول بعضها ببعض لاتفاقها في الخبرية مع وجود الجامع المعنوي الرابط بينها وهو أنها كلها متصلة بالله جل جلاله .

ولما أن أبان الخطاب النبوي الكريم ثمرات التقوى في دفع السلبيات المخيفات عن المتقي أردف ذلك ببيان الثمرات الإجابية الجالبة للنفع للمتقين (وإن تقوى الله تبيض الوجه ، وترضي الرب ، وترفع الدرجة) نلحظ أن البناء التركيبي في هذه الفقرة أشبه بناء الفقرة السابقة إذ قد بدأ ب (إن) المؤكدة واسمها (تقوى الله) وجملة الخبر (تبيض الوجه) ثم عطف على جملة الخبر جملتين (وترضي الرب ، وترفع الدرجة) وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بمقياس دقيق في بناء جمله وتراكيبه ليؤثر في النفوس تأثيرا حسنا وسبحان من أوحى إليه ما أوحى ، نلحظ قصر الجمل ، وبناءها على الفعل

المضارع الذي يفيد التجدد حينا بعد حين ، ثم ذكر ثلاث ثمرات تحدثها التقوى للعبد التقي .. تبييض الوجه أي إشراقه بنور التقوى والطاعة ، ثم إن هذا النور نابع من إرضاء الرب ، وليس تبييض الوجه وحده ، وإنما تبيض الوجه ، وترضي الرب ، وترفع الدرجة " وبالنظر إلى تلك الجمل الثلاث نرى أنها اشتركت مع بعضها البعض في كونها أخبارا ل (إن) مما يدخلها في ميدان التأكيد الذي يطمئن قلوب السامعين ويبشرهم بشارة مؤكدة بعاقبة التقوى .

ثم نرى جملتين كانتا جماع الخير في الدنيا والآخرة ، وهي قوله صلى الله عليه وسلم : " خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله " أي تمتعوا بالطيبات دون تفريط في حدود الله تعالى ، وهما جملتان اتفقتا في الإنشائية ، فالأولى أمر مراده النصح (خذوا بحظكم " ، والثانية نهي (لا تفرطوا في جنب الله) وباتفاقهما في الإنشائية ووجود الجامع المعنوي وهو الاعتدال في الأمرين كان بين الجملتين توسط بين الكمالين سوغ العطف بينهما بالواو.

ونرى الجمل الجامعة تتوالى وليس هذا بغريب على بلاغة الخطاب النبوي الشريف إذ إنه صلى الله عليه وسلم في مرحلة إعداد لقادة الأمة ، وحملة مشاعل الحضارة الإنسانية إلى الناس جميعا .. فنرى قوله :" قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين " ففي قوله : " قد علمكم الله كتابه " وإن كانت جملة خبرية إلا أنها في معنى الإنشاء أي التزموا الكتاب الذي علمكم إياه ، وكذا في قوله " ونهج لكم سبيله " أي اتبعوا سبيله الذي نهجه لكم ، وبينهما على ذلك توسط بين الكمالين للاتفاق والجامع ، ثم نرى بيانا كان بمثابة الجواب عن سؤال أثاره معنى الكلام السابق ، وكأن سائلا يسأل عن علة الالتزام بالكتاب واتباع المنهج فجاء قوله " ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين " أي أنكم في اختبار شديد يبرز الصادق من الكاذب ، نرى وضوح التضمين القرآني بجلاء في العبارة النبوية الشريفة ليضيف إلى بلاغة الخطاب النبوي قوة وجلالا .

ويترتب على كل ما سبق من هذا الخطاب النبوي البليغ ما جاء في قوله : " فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده " نرى الفاء المبينة بما بعدها سبب ما قبلها ، تتلوها الكلمة الجامعة (أحسنوا) وقد زادها حذف مفعولها شمولا ليعم الأمر بالإحسان جميع الأقوال والأفعال والمعتقدات في المرغب والمرهب وفي أمور الدنيا والآخرة ، ثم ذكر الخاص بعد العام في قوله " وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده إذ إن ذلك كله من الإحسان المذكور قبله

وفي قوله : " وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيَّ عن بينة ".

وهنا يوجه الرسول صلى الله عليه وسلم الرأي العام لأمة الإسلام مكاشفا إياهم بالحقائق كاملة ، فقيام الدولة الإسلامية في المدينة يعني المواجهة لكل نظم الكفر الفاسدة

ولن تكون هذه لمواجهة بادئ ذي بدء بالحرب المسلحة وإراقة الدماء ، وإنما نراه صلى الله عليه وسلم يأمر أمر وجوب بالإحسان المطلق في كل شيء في الأقوال كلها، والأفعال كلها ... لذا نرى حذف المفعول في قوله :" فأحسنوا" ليفيد العموم والشمول، وليست الدرجة الدنيا من الإحسان ، وإنما الدرجة العليا ما استطعتم إلى ذلك سبيلا "كما أحسن الله إليكم" ، فإذا لم يصلح الإحسان فساد القلوب، وضلال السلوك، وأصر أعداء الله على إيذائكم رغم تقديمكم الإحسان إليهم فلا وسيلة لدفع أذاهم عنكم إلا الجهاد في سبيل الله: "وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده" وحق الجهاد أن لا يكون فيه اعتداء أو ظلم أو باطل

ثم نرى التضمين في قوله " هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين من قبل ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ولا قوة إلا بالله " ليذكرهم بنعمة الله عليهم التى تستوجب تقواهم له محذرا إياهم من المخالفة الموقعة في الهلكة ، ومبشرا للمتقين بحياة كريمة في الدارين .

ثم يعطف البيان النبوي التوصية بذكر الله تعالى ، عطفا مبينا لعلة ما تقدم من تبشير وإنذار فقال " فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد الموت ، إنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم "

وهذه الفقرة هي خاتمة الخطبة الشريفة لذا فقد تضمنت خلاصة ما سبق تفصيله في الخطبة كلها ، فبدأ بأمرهم بالإكثار من ذكر الله تعالى ، أي مراقبته في السر والعلن ، وهذه خلاصة التقوى التي دارت حولها الخطبة من أولها إلى آخرها ، وكذلك العمل لما بعد الموت إذ إنها من ثمرات التقوى ، فهو أمر مراد به التعليم والإرشاد وإعداد الصحابة المخاطبين لقيادة الأمة بأسرها

ثم نرى كمال الانقطاع متمثلا في الجملة الخبرية التي تلت الإنشائية في قوله " إنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس.. لأن الله تعالى هو الحاكم على الناس وهو القاضي بينهم دون العكس ، وهذا مبدأ كلي في جميع أمور الديا والآخرة ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، لذا فصل بين هذا القول وبين الجملة بعده " الله أكبر ولا قوة إلا بالله " لكمال الاتصال لكون جملة (الله أكبر ولا قوة إلا بالله) تأكيدا لما قبلها ، أما العطف بين جملتي (الله أكبر) و (لا قوة إلا بالله) فللتوسط بين الكمالين مع وجود الجامع المعنوي.

وبعد : فما تلك إلا قبسات خاطفة من أنوار بلاغة الخطاب النبوي الشريف أُلفِت من خلاله إلى مدى دقة البيان النبوي الشريف في بلاغة خطابه ، وكيف راعى المقامات باختلاف أنواعها ودرجاتها من زمان ومكان ومخاطب وخطاب وذلك بتخير الملائم من الألفاظ والملائم من الأحوال ومن الأبنية والصور والمحسنات البديعية التي سبكت مع بعضها البعض هذه السبيكة الفائقة في بلاغة الخطاب النبوي الشريف .

خلاصة الموازنة بين الخطبتين

لأن كل ما سبق يعد تفصيلا لإبراز الفروق بين الخطبتين اللتين تمثلان نموذجا للعهدين المكي والمدني في الخطاب النبوي الشريف ، وكيف أن هذا الخطاب قد اختلف هذا الاختلاف الكبير مراعيا بهذا الاختلاف الأحوال المختلفة بين العهدين من حيث الزمان والمكان والمخاطب وسائر الظروف التي اكتنفت كل واحد من هذين العهدين .

فنحن نلحظ أن الدعوة كانت سرا في العهد المكي ، ثم طرأ عليها الأمر بالجهر بها .. مما يعدُّ صداما عارما بين عقيدة التوحيد وعقائد الشرك والوثنية ، فالمخاطب في العهد المكي مشرك كافر معاند ذو حمية جاهلية غاشمة ، وهو بذلك يكون في أعلى درجات الإنكار ، ولم يكن لديه أدنى استعداد لاستعراض الأدلة أو مناقشتها ، فهو بحاجة إلى حجة قاطعة موجزة مقنعة تقطع عليه طريق عناده من الوهلة الأولى؛ لذا جاءت خطبة الصفا موجزة غاية الإيجاز حيث دارت كلها حول محور واحد :" فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " ثم إقامة الحجة البالغة التي لا يستطيعون دفعها بنزع الاعتراف منهم هم أنفسهم بأنه صلى الله عليه وسلم لا شك في صدقه ونزاهته من أدنى درجات الكذب " أرأيتم لو أني أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا " وهذه عبقرية عقلية فذة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يُلْجئ الخصم إلى مقدمة عقلة شامخة تترتب عليها نتيجة محتمة وهي غاية ما يصبو اليه .

ومن جانب آخر يقطع طريق المحسوبية والقرابة ليكون الطريق خالصا لوجه الكريم ، ويتمثل ذلك في النداء المكرر لعشيرته التي أقربها فاطمة ابنته " يا بني فلان .. أنقذوا أنفسكم من النار . .... يا فاطمة بنت محمد : أنقذي نفسك من النار " نرى نداء موقظا منبها لأهمية ما يتلوه ، ثم يأتي بالأمر المنذر المحذر شديد اللهجة تغلفه الاستعارة التمثيلية " أنقذوا أنفسكم من النار " إذا به يؤكد نفي

نفعها " إلا رحما سأبلها ببلالها " أقول إن الجمل معدودة ، ذاخرة ممتلئة بالمعاني والإيحاءات ، ومفصلة لبراعة استهلال سابقة تقض المضاجع وتفجع الهواجع " وا صباحاه "..

أما خطبة المدينة المنورة فإن الأمر يختلف اختلافا كثيرا ، فالمخاطبون مؤمنون ليسوا بكافرين ولا معاندين وإنما محبون طائعون مستجيبون فناسب ذلك براعة الاستهلال بحمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة والسلام على نبيه صلى الله عليه وسلم

هذه القلوب المؤمنة هم النواة الأولى للأمة الإسلامية جمعاء ، قلوبهم منشرحة مستعدة لتلقي أوامر القائد الأعلى الذي يقودهم إلى بناء دولتهم العظمى الذين هم قادتها وعمدها وألويتها وحاملو رايتها والمدافعون عنها ...فناسب ذلك الجمل الرقيقة الواضحة السلسة التي تدور حول سر بناء الأمة وهو سر واحد لخصه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلمة واحدة هي (التقوى) وقد أدار النبي ، وحولها خطبته كاملة ، يشرح ويؤكد ، ويقرر ويثبِّت ويدلل من القرآن الكريم ما لم يفعله في خطبة الصفا لأنه لا يريد أن يخاطب القوم بما يرفضون.

هذا والناظر في خطبتي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال الأسرار تلوح له ويتولد سر من سر ، ويخرج نور من نور ... وتتزاحم الأنوار أمام الباحث حتى لا يرى أمامه إلا أن يضع قلمه مسلِّما لتلك البلاغة الرائعة التي يتحلى بها الخطاب النبوي الشريف

المراجع

١ – القرآن الكريم – جل من أنزله–
٢ – الاتصال وبحوث التأثير – د حمدي حسن أبو العينين – ط ٢٠٠٣ القاهرة
٣ – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي – ط ٨ – دار الكتاب العربي – بيروت – ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م
٤ – البداية والنهاية – ابن كثير – ط القاهرة د ت
٥ – البيان والتبيين – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – د ت
٦ – تفسير الكشاف – الزمخشري – ط مصطفى البابي الحلبي – مصر – ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م
٧ – تفسير القرطبي – (الجامع لأحكام القرآن الكريم) – دار الكتاب العربي – بيروت – ١٩٥٢م
٨ – حياة الصحابة – محمد بن يوسف الكندهلوي – تحقيق نايف المجداس – ط الراجحي –الرياض ١٤٠٣ هـ
٩ – سبل الهدى والرشاد في هدي خير العباد – محمد بن يوسف الصالحي الشامي – تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض – دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٤ هـ
١٠ – شروح التلخيص – ط دار السرور بيروت – د ت
١١ – صحيح الترمذي – بشرح الإمام ابن العربي المالكي – ط دار الكتاب العربي بيروت د ت
١٢ – صحيح مسلم – ط إدارة البحوث العلمية – المملكة العربية السعودية – ١٤٠٠ هـ

١٣ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري – الشوكاني – ط الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية – الرياض د ت
١٤ – فقه السيرة النبوية – منير محمد غضبان – ط جامعة أم القرى – مكة المكرمة – ١٤١٥ هـ
١٥ – الكتاب – سيبويه – تحقيق عبد السلام محمد هارون – ط ٣ – الخانجي – القاهرة – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م
١٦ – لسان العرب – جمال الدين بن منظور – ط دار المعارف – القاهرة
١٧ – مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – العدد ١٢ – ١٤١٥هـ
١٨ – محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم – محمد الصادق إبراهيم عرجون – ط دار العلم – دمشق – ١٤٠٥هـ
١٩ – مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين – ابن قيم الجوزية – ط دار الحديث – القاهرة – د ت
٢٠ – معجم مقاييس اللغة – ابن فارس – تحقيق عبد السلام محمد هارون – ط دار الفكر – ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م
٢١ – من قضايا الإعلام في القرآن – رمضان لاوند – ط دار الهدف – الكويت – د ت
٢٢ – وظيفة الأخبار في سورة الأنعام – د سيد محمد الساداتي – ط عالم الكتب – الرياض – ١٤١٠ هـ

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	مقدمة	٨٦٣
٢	أولا : خطبة الصفا	٨٦٨
٣	مناسبة الخطبة	٨٧١
٤	القِيَم البلاغية في الخطبة	٨٧٢
٥	براعة الاستهلال	٨٧٢
٦	التمهيد للقضية الرئيسة في الخطبة :	٨٧٧
٧	عرض القضية الرئيسة في الخطبة :	٨٨٠
٨	الدلالات والمعاني والمفاهيم البلاغية في خطبة الصفا	٨٨١
٩	أولا : مبدأ البشارة والإنذار	٨٨١
١٠	ثانيا : انتقال بلاغة الخطبة من الاتصال الشخصي إلى الاتصال الجمعي :	٨٨١
١١	ثالثا : فن التوقيت	٨٨٢
١٢	رابعا : استخدام الوسائل المناسبة في بيان المقاصد الحسنة ، والغايات السامية	٨٨٢
١٣	خامسا : تخير المدخل الاتصالي المناسب :	٨٨٢
١٤	سادسا : إشراك المتلقين في الحوار :	٨٨٣
١٥	سابعا : القدرة على بث الثقة في المخاطبين :	٨٨٣
١٦	ثامنا : إحكام القول :	٨٨٤
١٧	تاسعا : ربط بلاغة الخطاب بمسلمات الأمة :	٨٨٤
١٨	عاشرا : التكرار والملاحقة :	٨٨٥
١٩	حادي عشر : المسؤولية الدعوية ودرجاتها :	٨٨٦
٢٠	ثاني عشر : المكاشفة والمصارحة في طرح القضية :	٨٨٧

م	الموضوع	رقم الصفحة
٢١	ثالث عشر : أسلوب حسن العرض وفن الصياغة :	٨٨٨
٢٢	أول خطبة في المدينة	٨٨٩
٢٣	الروايات الصحيحة للخطبة	٨٨٩
٢٤	الدلالات البلاغية للخطبة	٨٩٢
٢٥	أولا براعة الاستهلال	٨٩٢
٢٦	ثانيا : استثارة الدوافع الإيمانية والإنسانية معا	٨٩٨
٢٧	ثالثا : الأمر بتقوى الله تعالى :	٨٩٩
٢٨	خلاصة الموازنة بين الخطبتين	٩١٠
٢٩	المراجع	٩١٢
٣٠	فهرس الموضوعات	٩١٥